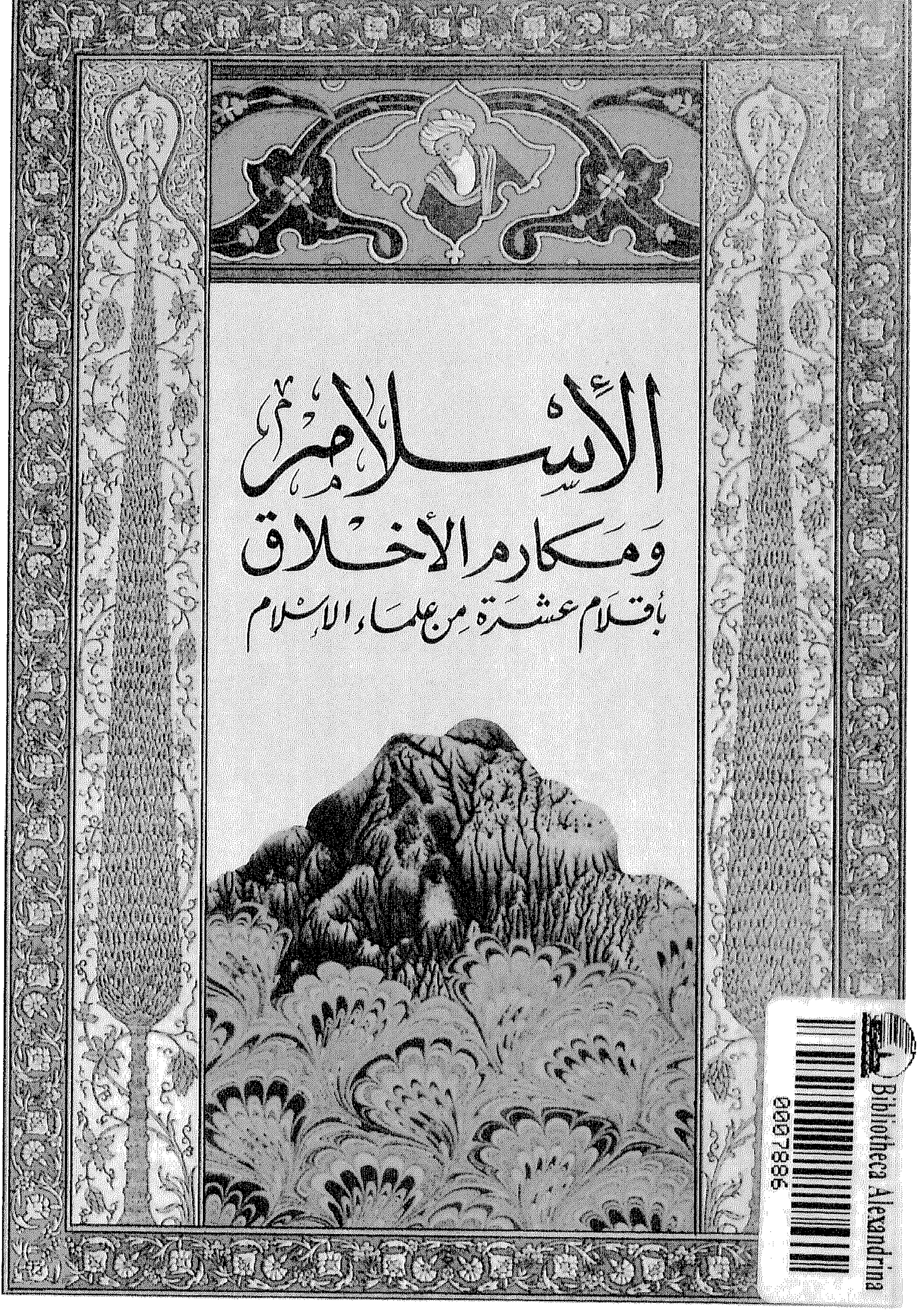
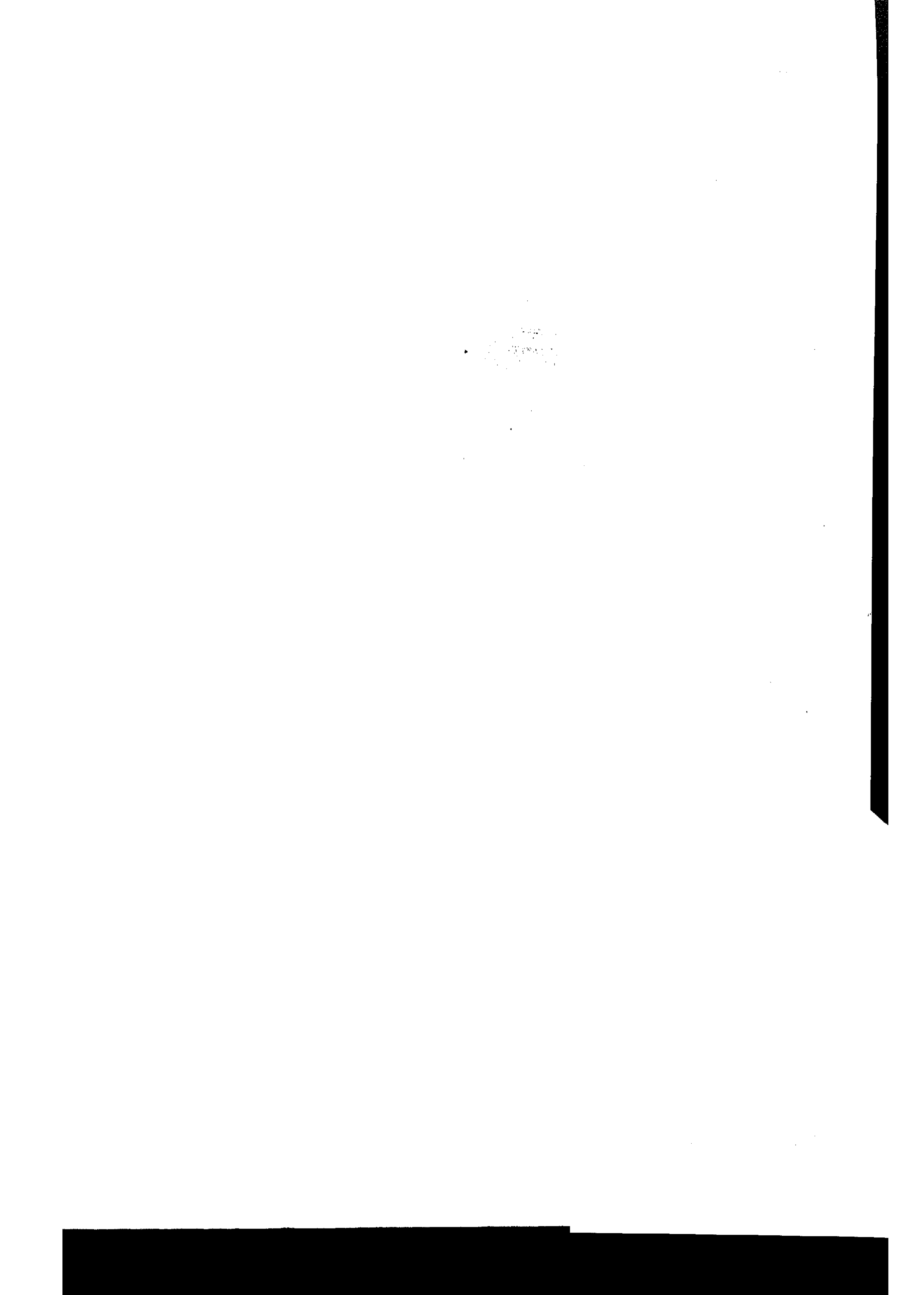


دار الكاتب العربي
دار الشوّاف للنشر





الإسلام

ومكارم الأخلاق

بأقلام عشرة من علماء الإسلام

الإسلام

ومكارم الأخلاق

بأقلام عشرة من علماء الإسلام

دار الكاتب العربي

الطبعة الأولى
١٤١٢هـ - ١٩٩٢م

محمد أبو زهرة

الأخلاق .. الأخلاق

قال الله تعالى : « واذا اردنا ان نهلك قرية امرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا » [1] •

١ ــ هذا نص صريح قاطع في ان هلاك الامم وضعف شأنها، وانحلال قواها ، انما يكون بالشهوات المتحكمة والاهواء المتردية ، وبسيطرة ذلك على الذين يوجهونها ، سواء أكانوا مديرين سيطرت عليهم اهواؤهم ، ام كانوا قادة الافكار المسيطرين على الرأي العام ، الذين يبثون فيه الفساد ، ام كانوا ذوي تقدير دنيوي وجاه لا يستمد من الفضيلة او الدين او الخلق الكريم ، بل يستمد من النفوذ الآثم والتضليل المبثوث •

ام كانوا من المقلدين لكل مرذول ، ومهما تكن قيادة الفساد وتنوعها ، فان هؤلاء هم الذين يقودون الجماعات الى الهاوية ، ولا يؤدي الى حتفها سلاح مهما كانت قوته ، ولا ادوات حرب مهما يكن فتكها ، لان كل شيء يسير بالهوى ، لا يجدي ، وكل قوم سيرتهم شهواتهم ينحدرون ولا يرتفعون •

وفي هذه الآية الكريمة ما يشير الى ان الترف هو الذي يؤدي الى الفسق، وان الفسق هو الذي يؤدي الى الدمار •

فعلى الذين يعملون لرفع الامة ، ان يتجهوا الى الدعامة التي تقوم عليها ، وهي قوة النفس وسيطرة الارادة المؤمنة على الاهواء الجامحة •

وانه كلما كان الترف المردي كانت القوى المنحلة ، وكلما كانت

---

(١) سورة الاسراء الآية ١٦ •

الارادة القوية ، والعزيمة الصادقة والاخلاص المنير كـان النصر المبيـن والتأييـد من رب العالمين •

٢ ــ ولا غرابة في ان الترف هو الذي يجعل الاهواء توجه وتحكم وتدفع الى الانحلال ، فتلك حقيقة ثابتة مقررة في علم الاجتماع •

ولعل ابن خلدون المسلم اول من نبه لذلك في مقدمته المشهورة ، فقد قرر فيمـا قرر ان الامـم التي لم يصبهـا الترف ، ولم تحل عزيمتها كثرة الشهوات ، هي الامـة القوية •

ولذلك يرى القوة الشخصية في البادية اكثر منهـا في الحضر ،وكان في الماضي للقوة البدنية مقامها في الحروب ، وسرعـان ما ينتشر البدو اذا تجمعـوا غزاة للحواضر التي تجاورهم •

اما الحضريـون فلا يقفون امامهم ، بل تنهار القوى الحضرية ، امام بأس البادية ، حتى اذا استقروا امدا ، استولـى عليهـم الترف ، وارخت عزائمهم الشهوات ، فصاروا غرضا لمن وراءهم من البادية • وهكـذا يستمر الحال في تلـك الدورة الدائمـة •

وقد يقول قائل منذوي الافكار التي لا تغوص وراء تعرف الحقائق:

وما لهذا القول وقد اصبح في زماننا هذا ، ان النصر في الحروب ليس بقوة الابدان ، اذ قـد تغير السلاح فصار النصر بالعلم ، وبقـوة الدربة على ما اخترعه ابن الارض من ادوات فتاكة ، وذلك في الحضر لا فـي الباديـة •

ونقول في الجواب على ذلك الكلام ، اننـا لا نأخذ من كلام ابن خلـدون الا شيئا واحـدا •

وهو اثر الترف في حل قوى العزيمة ، ثم الاسترخاء الـى المـلاذ

والشهوات ، والتطبيق الذي ذكره عن اهل البادية والحضر نأخذه كمثل موضح او مقرب لأثر الترف في حل العزائم .

وان ذلك لحقيقة مقررة ثابتة تطبق في الجماعات كلها ، سواء أكانت هابطة في مقامها الفكري ام عالية . وسواء كان السلاح فيها سيفا ام رمحا . أم كان طائرة تخترق اجواء الفضاء ، ومدافع تدك الارض دكا ، وجاريات تمخر عباب البحر .

فان الترف المفسد له اثره في كل الاحوال ، والاعتصام بالدين ، وبالاخلاق له ثمرته في كل الاحوال .

فاذا سيطر الترف كان الفسق عن امر الله ، وكانت الارادة المنحلة والعزيمة الخائرة ، والجماعات الحائرة والقلوب المتنافرة ، والطبقات المتنابذة .

ومهما تكن قوة السلاح ، وكثرة العدد ، فان القوة المعنوية هي القوة الدافعة ، لان الاسلحة لا بد ان تكون صادرة عن جماعة مؤتلفة ، وعن ارادات حازمة .

ولا يمكن ان تتحرك الاسلحة من تلقاء نفسها ، وتعمل من غير عقول مدركة وقلوب مجتمعة ، وجماعات متآخية ، لتطمئن النفوس ، وتستقر الاحوال . اذ يعتقد حامل السلاح ، انه يعمل لجماعة تقدر عمله وتجني ثمراته وتستغلها في نفع عام ، لا في الشهوات الجامحة ، والترف المفسد واللهو الباطل .

فالانسان لا يقدم نفسه فداء لجماعته الا من يستوثق بانها ، تنتفع بفدائه ، وتعرف ان فناءه بقاء لها .

ولا يمكن ان يتقدم للفداء من يظن او يعتقد ان الذين يستمتعون

بثمرة فدائهم ، يلهــون ويلعبون ، ويعيشون في الارض من غير و ا
ديــن او خلق او رأي عام لائم مقوّم مهذب .

٣ ــ وانه مهما يكن من الكلام في اثر الترف الذي اشار البيا
القرآني ، من انه السبب في انحلال الامة ودمارها وذهاب قوتها
بقــي لهــا وجــود .

فمن المؤكد انه مناف لسيادة الاخلاق في الامة ، وانه اذا ف
اخلاقها عزفت عن الترف ، ولم تنل من الملاذ الا مــا تقوى به الا
وما يكــون سائرا تحت ظل الاخلاق الدينية والاجتماعية ، وكل م
مفيد للجماعة ، بحيث يكــون الرجل مصدر خير لامته عامة ولج
خاصة ، وللانسانية في شتى الشعوب والاقاليم .

ولكن كيف تكون الاخلاق كابحة للاهواء مانعة من الترف

لا بد ان نخوض بكلمة موجزة في مقياس الخير والشر في ا
وفي فلسفــة الاخــلاق .

وان من الامور التي يثيرها علماء الفلسفة الخلقية الاجتماعية ،
المقياس الخلقي ، وما الضابط لما هــو خلقي ، وما ليس بخلقي .

فهم يقررون حقيقة ثابتة ، وهو ان الخير حكمه واحد عام ، ف
خير في امة ، هو خير فيمــا عداها . وما هو شر في جماعة هو شر
الجماعــة الاخــرى .

فحكم الخير والفضيلة عام لا يخص اقليمــا ، وهــو في الز
كذلك . فأحكامه الخلقية والشرعية عامة لا تخص قبيلا دون قبيل .

فالصدق والعدل والحياء ، هي فضائل في كــل زمــان ومـ
والنفاق والكذب والخيانة ، والنميمة والسعايــة بالفساد فــي الار

والقتل والاعتداء بكل ضروبه ـ حكم القرآن انهـا شر فـي كـل بقاع الارض •

وكذلك فالعدالة خير واجب يلزم به المسلم لا فرق بين عدو وولي ، ولذلك يقـول سبحانـه :

« يا ايها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على الا تعدلوا اعدلوا هو اقرب للتقوى » (١) •

٤ ـ وان علمـاء الاخلاق يختلفون بعد ذلك في المقياس الضابط للاخلاق • فمنهم من يقول انه الملذات • فكل ما هو لذيذ طيب خير• وكل ما هـو ليس بطيب شر •

ومنهم من يقول ان كل ما فيه سمو وعلو خير ، وما ليس كذلـك فهـو شر • وهذا مقياس ليس بمضبوط ، الا من قبل النفس والاحساس الروحـي • وهذا يشبه ما عنـد الصوفية •

ومنهم من يقول القياس الضمير والوجدان ، ومنهم من يقول هـو الواجـب وهكذا •••

وهناك مذهب مقرر وهو ان المقياس هو المنفعه لاكبر عدد وبأكبر مقدار • فكل عمل فيه نفع لاكبر عدد وباكبر قدر خير • وكل عمل فيـه مضرة لاكبـر عـدد شر •

ولعل هذا المذهب هو اقرب الآراء لاقوال فقهاء المسلمين •فالغزالي وابن عبدالسلام قررا ان الاحكـام الشرعية باستقرائهـا ، يتبين انهـا جـاءت لمصلحـة الانسـان •

فما يكثر نفعه على ضرره يكون مطلوبا ، وما يكبر ضرره علـى نفعـه يكـون ممنوعـا هذا وتتفاوت المطلوبات في الطلب بقدر الضرر

(١) سورة المائـدة الآيـة ـ ٨ •

من مكـــروه الى محرم •

٤ ــ ويلاحظ في تقدير المنافع ادومها وان كان قايلا ، فانه يدخل في تقدير الكثرة والقلة مقدار الدوام • فما ينقض سريعا ، وان كان كثيرا خير منه ، ما يكـــون أدوم ، وان كان اقل من السريع • ولذلك يقول النبي صلى الله عليه وسلم :

« أحب الاعمال ادومها وان قلّ »

ويقول عليه الصلاة والسلام :

« ان الله يحب الديمة من الاعمال » •

وان المنفعة العاجلة يقايس بينها وبين المنفعة الآجلــة ، وقــد يترك النفع العاجل ، ويقصد النفع الآجل ، ويكون الخير فيه •

فمن يتحمل المشاق لنيل غرض مقصود ، لا ينال الا المشاق ، انمـــا يأخذ بمبدأ المنفعة الآجلة • فكل مشقة تحتمل لغايـــة تكـــون في ذاتهـــا نافعـــة له او لغيره ، يكون من قبيل الاخذ بمبدأ المنفعة الكاملة ، الآجلة التي تقرها الشريعة ، ويقرهـــا المذهب الخلقي السليم •

ومن اجل ذلك ، كانت مشقات الجهاد يفرضها حكم القرآن لسبيل غايـــة سامية ، وهي حمايـــة الدولة ، وتوفير الامن والاطمئنان للامة ، وتحقيـــق منافعهـــا •

وان احتمال مشاق الدنيا ، لما يرجى من نعيم الله في الآخرة •ولقد روي ان المسيح عليه السلام قال :

« طوبى لمن ترك شهوة حاضرة لموعود غائب لم يره » •

٥ ــ مضينا على شاطىء البحوث الخلقية ، وما تنتهي اليه مـــن ان المنافع لاكبر عدد مطلوب ، وهو يتقارب مما تقرره الشريعة في جملة مـــا

استنبطه علمــاؤها ، مقياس صحيح للاخلاق ، والاحكام الشرعية المنزلة •
وانا سقنا هذا الكلام لامرين جوهريين :

اولهما ــ ان اللذات العاجلة التي يدفع اليها الترف المدمر للاخلاق ، يتنافى مع الدين ومع الاخلاق ، التي يقررها علماء الفلسفة الخلقية • وانه لا يمكــن ان تقوم امة ، والترف ينخر في عظامها ، ويدمرها كما قــرر القرآن في محكــم آيــاته •

ثانيهما ــ ان النفع العام مطلوب بحكم الشرع ، وان كل ما يتنافى مــع النفع العام لاكبر عدد يقوض دعائم الاخلاق •

وان الذيــن يقدمون نفوسهم واموالهم ، واقلامهــم ، والسنتهم ، يجب ان يشعروا بانهم يفعلون ذلك لمنفعــة الكافة • وانهم يجب عليهم ان يقومــوا بذلك لاجل الامــة ،لا لأجل شخص معين •

فهم خدام لهذا الشخص ، وان قدموه للامة ، وهم خــدام الحــق والواجب ، وبذلك تسمو نفوسهم ، وتعلو مكانتهم عند الله وعند الناس، وان قدموه لاجل شخص فهم الاذلون ، ولهــم من خلــق العبيد قــرب ، والعزيز من يخدم الحق لذات الحق،لانه عبد لله تعالى ، وليس عبدا لاحد من خلقه • فخدمة الاشخاص ذلة ، وطاعة الله عز ، فلنعتبر ونتدبر •

٦ ــ وننتهي من هذا الى امور ثلاثة نقررها ، ونطبقهــا علــى مــا نحــن فيــه •

اول هذه الامور ان الترف فساد وضد مكارم الاخلاق، لانه اثرة وانانية • والفضيلة نفع عام وايثار • وان الترف اذا ساد في امــة هــزع اخلاقها ، وتقطع آحادهــا ، وتنابذوا وتفرقوا • لان كلا لا ينظر الا الى نفسه وما يحدهــا ولا يخرج عن دائرتهــا •

وفي الحق انهـا لا تكون امة مجتمعة مؤتلفة ، بل تكون اقطاعـا متدابرة متنابزة . وان الترف وسيطرة الاهـواء والشهوات مزيتان لا ينفصـلان ، وانهمـا معا ، ينجم عنهمـا الفسوق والخروج على امر الله تعالى ، ووراء ذلك النار .وقد قال سبحانه وتعالى :

« فاذا جاءت الطامة الكبرى ،يوم يتذكر الانسان ما سعى ، وبرزت الجحيم لمن يرى ، فامـا من طغى وآثر الحياة الدنيا فان الجحيم هـي المأوى واما متى خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فان الجنـة هـي المأوى . » (1) .

وهل نحـن في مجتمعنا الاسلامي عامة والعربي خاصة ، قد تجنبنا متارف الحياة ولم نأخذ منها الا بمقدار استرواح النفس ؟

الجواب على ذلك نأخذه من حاضر معاين وشاهد قائم .

انظر الى ما يذاع في وسائل الاعلام من صور عاريـات او شبـه عاريات ، ومن لهو عابث ومن مثيرات لاحط الغرائز ، ومن شغل شبابنا وبناتنا بالمغريـات .

لقد كنا نحسبه شرا واحدا وهو الانغماس في الشهوات والدعوة اليها ، والاغراء وتسهيل السبل لملء النفس منها . فاذا مع هذا شر آخر ، وهـو التقليـد من غير تفكير .

ان الشعب المجاهد يجب ان يتحصن بشكائم الاخلاق الفاضلة ، وان يدرع بارادات قوية فعالـة .

وهل يمكن ان يتكون جيش من شعبمنحل الارادة سيطر عليـه الهوى ، وشغلته متارف الحياة ؟

---

(1) سورة النازعات الايـات ٣٤ ـ ٣٨ .

انه لا بد من عزمة صادقة يقوم بها المسؤولون في الدولة ، ليسنعوا ذلك بامر صارم ، ليكون جيش من شعب متحصن العزيمة يريد ما يفعل ويفعل ما يريد .

وقد يقولون ان الامم التي تقلدها في ذلك الترف المغري قوية ، ادرعت بالحديد والسلاح ، فنقول لهم انها ادرعت بالمال والحديد ، ولكنها لم تدرع بالاخلاق الانسانية العالية والعزائم القوية .

ونرى ذلك واضحا في معاركهم . الم تر الى دولة قوية بمالها وسلاحها وكثرة عددها ، وسعة سلطانها ، قد تقف حائرة في معركة يذوب جيشها فيها ذوبان الثلج في مكان حار ، امام طائفة من الناس ،صغيرة في عددها نسبيا ، الا انها مدرعة بارادة وعزيمة ، فتتصدى لتلك الدولة وتحرج موقفها الى حد ما .

٧ ـ الامر الثاني ـ انه لا يمكن تطبيق قانون الاخلاق تطبيقا سليما الا بايمان صادق ، والطاعة لاوامر الله ونواهيه ، وتتخذ الاهبة ونفوض الامور من بعد ذلك لله . فلا بد من طاعة مؤمنة وتنفيذ لاحكام الشرع جملة وتفصيلا ، فهي المتضمنة لاحكام الله تعالى والاخلاق .

فالناس يرون الخير في احكام الله وحكم الاخلاق . وان الواقع في بلادنا انه يتجه بعض العابثين الى ان يجعلوا الدين كأهوائهم ، ويخرجوا القرآن على شهواتهم . وما يوافق هواهم من السنة يتبعونه ، وما يخالفها يردونه ، ويلوون السنتهم ، وتعبث اقلامهم بما يسمونه تطورا .

فهؤلاء خير منهم من لا يتعرض للدين بقليل ولا كثير ، لانهم يريدون الدين على هواهم ، ولا يريدون ان يكون هواهم في ظل الا

كمـــا قال صلى الله عليه وسلم :

« لا يؤمن احدكم حتى يكون هواه مسبقا لما جئت به » ٠

٨ ـ الامر الثالث الاستقامة والامانة ، فالامانة ، تولد الثقة ، والثقة تجمع القلوب ٠ والاستقامة تجعل المؤمـــن كالسيف تتكشف عنـــده الظلمـــات ٠

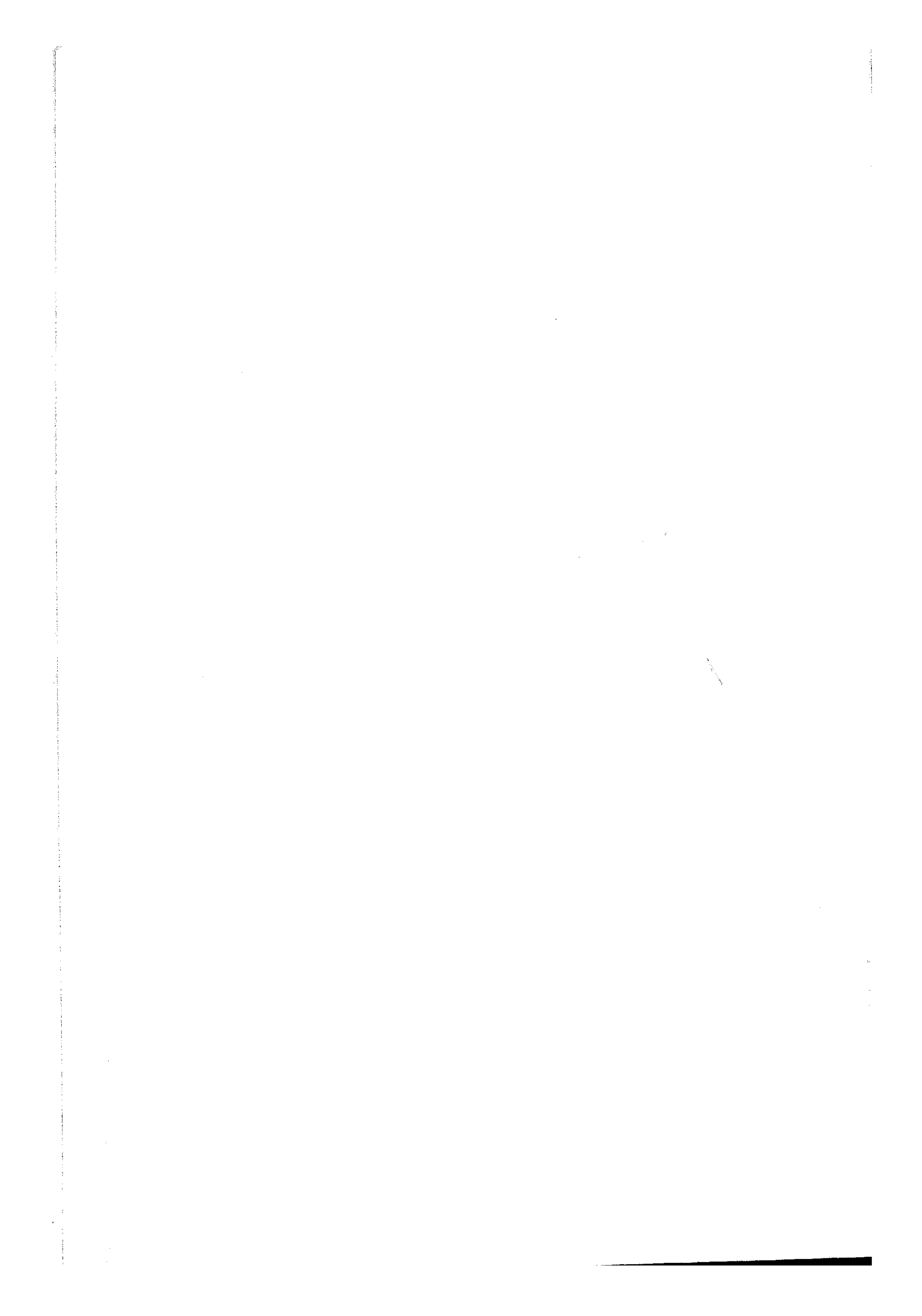
والاستقامة اساسها الاخلاص ٠ فان الاخلاص يجعل النفس تشرق بالحكمة ، وتنطلق بالحق وتعمل به ، وتكون المعاملة الحسنة مع الناس ، ويكون السلوك المستقيم ٠

ولقد سأل رجل النبي صلى الله عليه وسلم ان يوصيه بوصية ،وان يقول قولا فيه عصمة امره ٠ فقال عليه السلام :

« قل آمنت بالله واستقم » ٠ فهل سارت على الامانة امورنا التي لا تستقيم الا بالامانات يا ترى ؟ اللهماصلـــح امـــورنا واهدنا ســـواء السبيـــــل ٠

الدكتور محمد يوسف موسى

الدّين والأخلاق



كلاهما يهدف لبيان الخير ويهدي اليه ، ويعنـــى ببيان الشر وتبغيضه الينا • والاخلاق كما تقول المعاجم والكتب العلمية التي تبحث في هذا الفرع من فروع الفلسفة ، هي مجموعة القواعد التـي بهـا نعمل الخير ونتجنب الشر • او مجموعة قواعد السيرة الطيبة المحمودة التـي يقبلها الناس عامة في كل عصر وزمان •

فاذا كان الامر كذلك ، كان من الطبيعي ان تكون صلة قوية بيـن الدين والاخلاق ، بل كان من الطبيعي ان تكون الاخلاق تابعة للدين ، وهذا حقا ما يعرفه تاريخ الفكر في القديم والحديث •

نرى هذه الصلة الوثيقة فيمـا نعرف من تفكير قـدماء المصريين والهنود والفرس ، وفيما نعرف عن المفكرين اتبـاع الديانات الوحيية : اليهوديـة والمسيحية والاسلام •

ذلك بان الغايـة من الدين وبخاصة ما كان سماويا منـه ، اصلاح الانسان والانسانية وليست الاخلاق الا هذا •

كان المصريون القدامى كما نعرف ،يدينون بحياة اخـرى ، يسـأل فيهـا المرء عمـا عمل في حياته الاولى • فكان من هذا حرصهم على ان يكونوا اخيارا وفي كتاب (الموتى) على ذلك شاهد وشاهد •

ولدى الهنود ، نرى ان عقيدتهم فيخلودالروح والتناسخ ووحدة الوجود ، قد استتبعت اخلاقا تقوم على الاعراض عن الدنيا وطيباتها ، وعلى رياضـة النفس بالزهد والتأمل في عزلة وسكون ، كما تقوم ايضا على حب الناس والكائنـات جميعـا •

وفي فارس موطن دين (زرادشت) الذي يقوم على الاعتقادبالهين،

اله للخير واله للشر ، نجــد مذهبــا في الاخلاق اساسه ، ان في الانسان صراعــا دائمــا بين مبدأين :

١ ــ مبدأ النور والخير ٠

٢ ــ مبدأ الظــلام والشر ٠

ومن ذلك ان على الانسان ان يعمل على نصرة مبــدأ الخير وذلــك باتباعه سبيل الفضيلة حتى ينتصر الخير في يوم آت لا ريب فيه ٠

هذا في الديانات الوضعية الفلسفية ، والامر في الديانات السماوية اوضح من ان يحتاج للحديث فيه ٠ اذ في كتب تلــك الــديانات ، نرى صلة الاخلاق وثيقة جدا بالدين بل نجد ان الاخــلاق جــزء مــن الديــن وليس في هذا شــيء من العجب ٠

ان الله العليم الحكيم هو الذي ارسل رسل هذه الاديان كلهــا مبشريــن ومنذرين ، هادين بوحيه الى الصراط المستقيم ، مرشديــن الناس الى سعادة الآخرة والاولى ٠

وهذه السعادة تكون بالعقيدة الصالحة ، كمــا تكون بالاخــلاق الطيبة المحمودة ، وبهذا نزل الوحي وجاء الشرع ٠ وان كان الباحث يجد في غير عنــاء المثل العليــا للسيرة والسلوك تختلف فيما بينها في هــذا الديــن عن ذاك باختلاف عصور الوحي والرسالات ٠

ومن المهم ان نشير هنا الى ان اخلاق هذه الديانات تقوم علــى الترغيب والترهيب ٠ على الترغيب في الخير بما وعدت من الثواب عليه، وعلى الترهيب من الشر ، بما رتبت عليه من عقاب ٠

ولم تر ان تدعو للخير ببيان ما فيه من حسن وجمال ولياقة بكرامة الانسان والانسانية ، ولا ان تبغض في الشر ببيان ما هو عليه من قبــح

في نفسه وتناف لكرامة الانسان كأنسان •

كما من الضروري ايضا الى ما لوحظ من ان كثيرا من الملحدين الذين لا يؤمنون باله خالق ولا بحياة اخرى يكون فيها الجزاء على اخلاق فاضلة وخلال محمودة من الناحية الاجتماعية •

بينما كثير من المؤمنين بهذا الدين السماوي او ذلك ، لا يعرفون من الخير الا اسمه ، ولا تتفق اعمالهم مع اقوالهم وعقيدتهم الدينية •

ولعل هذه الملاحظة وتلك ، هو ما دعى بعض الفلاسفة والمفكرين المحدثين الى محاولة فصل الاخلاق عن الدين • وذلك بتعديل احكامها عقليا ، والبحث عن اسباب ومبادىء اخرى تدفع للخير وتحبب فيه وتبعد عن الشر وتجعله بغيضا،دون حاجة الى اللجوء للدين وما يرتبه من جزاء على الخير والشر • وبذلك يؤمن بالاخلاق المتدين والملحد على السواء •

***

وان اصحاب هذا الرأي ، او ان رجال هذه المدرسة وعلى رأسهم (اميل دور كايم) الفيلسوف الفرنسي المعروف ، يقولون بان من الممكن فصل الاخلاق عن الدين ، وجعلها عقلية في مبادئها ووسائلها ، كما يرون بان هذا من الخير ، اذ يعين على الوصول للغرض الذي تهدف اليه الاخلاق •

انهم يرون بان يكون هذا العمل خيرا والآخر شرا ليس الا حقائق لها وجود ، وكل ما كان كذلك يجب ان يكون من الممكن تفسيره بالعقل وحده دون حاجة للجوء للدين او فلسفة ما بعد الطبيعة •

ولم تعد قدرة العقل على تفسير كل حقيقة من هذا الضرب او غيره موضع شك او عجب ، بعدما رأينا من تقدم علوم الطبيعة والحياة

والنفس ، هذا التقدم الذي فهم به الانسان الكون ، ودانت له عناصر الوجود او كادت .

فاذا كان الامر هكذا في غير الاخلاق ، فلماذا لا يكون كذلك في الاخلاق ؟ ولم نحتاج — في رأي دوركايم — في سبيل تثبيت الاخلاق في العقول والطباع ، ان نلجأ الى طريق يعز على العقل ادراكها ، ان نلجأ الى الدين او ما بعد الطبيعة.

على انه لا يصح في سبيل جعل الاخلاق عقلية ان نحذف منها كل ما جاء عن الدين ، والا صارت اخلاقا هزيلة ليس لها من اساس .ان الواجب ان نبحث عن المبادىء الاخلاقية التي جاءت من السماء ، وان نحدد بعد هذا طبيعتها الخاصة وان نعبر عن هذه المبادىء بلغة علمية عقلية .

ثم للاخلاق طابع قدسي خاص ، طابع الزامي لا يمكن عدم الاعتراف به او الخروج عنه ، حتى انه قد يقبل ان يلحد المرء في دائرة العلم فلا يؤمن ببعض حقائقه ، ولكن لا يقبل بحال ان يلحد في الاخلاق . وهذا الطابع هو ما يعجل للاخلاق قوتها واثرها الكبير في العلم والمتعلم معا .

هذا الطابع يجب اذا الاحتفاظ به،ولكن فيما يقول دوركايم — ليس من الضروري رده للدين او لمبادىء ما فوق الطبيعة ، بل من الممكن تفسيره عقليا في سهولة ويسر .

وقد يمكن التفسير باسناده الى ما يجب للانسان والجماعة من كرامة وتقديس ، وذلك ، يجعل ما يتصل بهما من الناحية العملية مقدسا كذلك .

ونتيجة ذلك كله ، ان يكون في الامكان ان نغرس في الطباع حب الخير لانه جميل في نفسه ، وكراهة الشر لانه قبيح بغيض في نفسه ،دون ضرورة الى اللجوء للترغيب والترهيب •

ومن مثل هذا المبدأ العام ان يفهم الانسان ان من حقه وكرامته على نفسه ان يحترم ما فيه من انسانية ،فلا يكذب ولا يكون جبانا مثلا • وان يفهم كذلك ان من واجبه لغيره ان يحترم ما فيه من انسانية فلا يغشه او يخدعه ، وهكذا يمكن بهذا المبدأ او ذاك غرس الخير وحب الفضيلة في الطباع بعد ان يقتنع العقل تماما ان ذلك جميل وحسن ومحبوب لذاته •

* * *

واخيرا ، فان فصل الاخلاق عن الدين لتكون علما عقليا ، اي اللجوء الى العقل للتحبيب في الخير والتنفير من الشر ، قد يكون له تأثيره الكبير في غير المؤمن بالدين ، الدين الذي يلجأ في التحبيب الى الفضيلة والتنفير من الرذيلة الى الترغيب بالثواب والترهيب بالعقاب •

الا انه قد يلاحظ مع هذا ايضا ان ربط الاخلاق بالدين لا يمنع الباحثين من جعلها علما عقليا ، وذلك بتفسير الاصول التي تستند اليها والمبادىء التي تقول بها تفسيرا عقليا ، كما هو الشأن في كل ما جاء به الدين من احكام وتشريع •

ان القرآن كان حكيما كل الحكمة بما اكد من ثواب وعقاب على عمل الخير والشر • ذلك ضروري اول الامر حتى يعتاد المرء على عمل الخير وحتى يذوق حلاوته ، وحينئذ ليحله نفسه ، وينتهي عن الشر لنفسه لا للثواب ولا العقاب •

حتى هذه الايام ،لم يصل الفلاسفة والمفكرون في هذه الناحية ،

مع الرغبة وطول البحث ، الى شيء آخر غير الدين يمكن ان تستند اليه الاخلاق ، ويكـــون لـــه طابع القدسية والالزام الذي نجـده للدين ، هذا الطابـــع الذي هـــو جد ضروري للاخلاق ، حتى في رأي هؤلاء الفلاسفة الاجتماعيين العقليين .

الدكتور محمود فياض

للإسلام منهج أخلاقي

حرص الاسلام على ان يكون فعل الخير والتزام الفضائل ، وترك الشر وهجر الرذائل ، خالصا لوجه الله ، لا لمنفعة خاصة ، عاجلة او آجلة ، تعود على الشخص من الفعل او الترك ، نلمح ذلك في قوله تعالى :

« من يخرج من بيته مهاجرا الى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع اجره على الله » .

ومعنى هذا ان من خرج مهاجرا الى غرض خاص فان اجره يقع على نفسه . ويفسر هذا بوضوح قول الرسول عليه الصلاة والسلام :

« فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته الى دنيا يصيبها او امرأة ينكحها فهجرته الى ما هاجر اليه » . فحسابه على نفسه لا على الله .

وهذا واضح في ان الاسلام يلزم بالخير لذات الخير ، ويأمر بالفضائل لانها فضائل . وان المؤمن الصادق يفعل الخير حبا في الخير . وليس هذا فحسب ، بل ان توجيه الاسلام الانسان الى فعل الخير والتزام الفضائل لذاتيهما يقوم على الالزام ، لا على التخيير ، فهو يلزمك بالصدق لان الصدق يجب ان يلتزم ، ويلزمك باجتناب الكذب ، لان الكذب يجب ان يجتنب . كما يلزمك بالفضائل كلها ، لان الفضائل يجب التزامها ، والرذائل يجب اجتنابها ، ومن ابتغى غير ذلك فقد ظلم نفسه .

ولقد ضلت الانسانية قرونا طويلة ، ولم تهتد الى مفهوم الخير والشر ، ثم خطا الاسلام بها خطوة واسعة ، فهو في الوقت الذي يأمرك فيه بفعل الخير وترك الشر ،يحدد لك مفهوم الخير والشر تحديدا واضح المعالم لا تضل بعده ولا تشقى .

فهو يعلن ان كل ما يحقق مصلحة للفرد او الجماعة ، او يدفع ضررا عن الفرد والجماعة ، فهو خير يجب ان يفعله المؤمن ابتغاء وجــه الله . كذلك كل مــا يعطل مصلحة او يلحق ضررا بالفرد او الجماعة ، فهو شر يجب ان يترك لوجه اللــه .

والمؤمن في فعله او تركه يقصد بالعمل وجه الله ، لان الله هـــو المشرع ومن حقه ان تطاع اوامره . ومن واجب المؤمن ان يمتثل امر الله من غير تردد ، او تشكــك .

ومن هنا نرى ان الاسلام هو اول داع الى الخير لذات الخير ،والى الفضائل لانها فضائل . وان دعوته الخلقية ، تقوم على اعداد روح خاص ، يطهر النفس ويزكيها ، ويجعلها محلا لتقبــل الامر بفعــل الخير والتزام الفضائل ، ابتغاء وجه الله ، والتقرب الى الله ونشدان الكمال .

وهذه الدعوة المثالية الى الخلق الكريم ، لم تعرف لهــا البشريــة صفة ومنهجا واضحا قبل الاسلام ، مما يجعلنا نقرر في غير تردد :

ان الاسلام هو استاذ جميع المذاهب الاخلاقية « الواجبــة » ، لا سيمــا المذاهب الحديثــة التي ظهــــرت بعده ، والتــــي فتنت بعض « المستغربين » من المسلمين .

فالاسلام ــ باتفاق العلماء في الشرق والغــرب ــ وجــــه الحياة الانسانية كلها عند المسلمين وغير المسلمين ، وأثّر آثارا واضحة معترفــا بها في جميع العلوم والآداب التي انتجت نهضة اوروبا .

غير ان الاسلام يمتاز عن هذه الآراء الفردية ، بتحديد معنى الخير والشر ، تحديدا واضحا ليس فيه لبس ولا غموض . بينما تجد هــــذه المذاهب غير متفقة على ما هــو خير او شر ، ولم يحدد مذهب مفهــوم

كلمتي الخير والشر تحديدا سليما واضحا يقبله العقلاء •

ولقد كانت عناية الاسلام عظيمة بتربية الخـلق الفاضل فـي الفرد والجماعة ، وقد عبر عن هذه العناية ابلغ تعبير محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم بقولـه : « انمـا بعثت لاتمم مكارم الاخلاق » •

وكان من خير ما امتدح الله به رسوله الكريم قوله تعالى : « وانك لعلى خلق عظيم » ، لانه تربية الله الذي اصطفاه ، وادبه فأحسن تأديبه :

وانك لتجد في كل آيـة من القرآن دعوة ، الى اصل من اصـول الخلق الحسن • وتجد كل مبدأ اسلامي يرشدك الى نمط مـن انمـاط مكـارم الاخلاق •

ولقد كان جواب العربي لمن يسأله عن دعوة محمد ، هو ان مهمـة محمد عليـه الصلاة والسلام ، مهمة اخلاقية اولا ، وهي تزكية النفـوس وتطهيرها من ادران الفساد واوزار الوثنية ، اقرأ :

« كمـا ارسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكـم آباتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمـة » •

« لقد من الله على المؤمنين اذ بعث فيهـم رسولا مـن انفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمـة وان كانوا مـن قبـل لفـي ضلال مبيـن » •

« خذ من اموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها ، وصل عليهم • ان صلاتك سكن لهـم » •

وتبلـغ هذه الروعة اقصى غاياتها ، عندما يرجع القرآن الكـريم نجاح النبي عليه السلام في دعوته الى مسألة اخلاقية :

« فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من

حولك ، فاعف عنهم واستغفر لهم ، وشاورهم في الامر » •

وافهم ما شئت بعد ذلك مهمة القرآن الكريم من قوله تعالى :

« ان هذا القرآن يهدي للتي هي اقوم » •

وكما يمتاز الاسلام في العقيدة ونمط العبادة ، يمتاز ايضا في تشريعاته للمعاملات الانسانية كلها عن جميع التشريعات القديمة والحديثة بمميزات اظهرها واجلاها ، ما اتفق عليه المنصفون الذين قارنوا الشريعة الاسلامية بالقانون الروماني ، من ان التشريع الاسلامي يمتاز بعنصر اخلاقي ، له صفة الالزام في كلياته وجزئياته ، من شأنه ان يحمل المكلف على الامتثال والتنفيذ للاوامر والنواهي ، من غير تردد في الفعل او الترك ، لانه يقوم بما يقوم به ، على انه دين لازم يتعبد الله به • ومن واجب المؤمن ان يستجيب لله الذي يأمر بكل جميل ولا يأمر بالفحشاء لا على انه قانون بشري يخضع للجدل في سبيل اظهار وجه الخير والمصلحة فيه • ولهذا العنصر الاخلاقي ، كانت الشريعة الاسلامية — عند فقهاء المقارنة — مستقلة غير مستمدة من التشريع الروماني •

واذن فتكاد تجد مهمة الاسلام ، ومهمة رسوله عليه الصلاة والسلام ، مهمة اخلاقية !

فما الاخلاق اذا لم تكن هي تهذيب النفوس وتزكيتها وتطهيرها ؟

ثم ما هو الدين اذا لم يكن تنظيما للسلوك العام للانسان مع خالقه ، ومع بني أبيه ؟ وما الدين اذا لم يكن هو حسن الخلق ؟

للاسلام اذن منهج اخلاقي ممتاز ، تتمثله في كل آية من القرآن الكريم ، وكل حديث للنبي الكريم ، في كل امر ونهي ، وفي كل مبدأ من المبادىء • فاذا لم يكن للاسلام منهج اخلاقي في دعوته الى الخير

والجمال ، والتزام الفضائل ، بغيــة الكمال ، فكيف واين يكون هــذا المنهــج المستقيــم ؟

ما هذه المذاهب الاخلاقية التي تقرن او تقارن بالاسلام ؟ هل يراد ان تكون « خلفية الاسلام » الجميلة الواضحة ،مثل ما تدعو اليه المــذاهب الاخلاقية ؟ وهي آراء افراد غير معصومين عن الخطأ ، وهم مظنــة الهوى ولم يسلم واحد منهم من التجريح ؟

ثم هي بعد ذلك آراء مجروحة ، وكثيرا ما اتخذها اللاحقــون اداة سخرية بالسابقين • وهل يريد اخوانـــا « المستغربون » ان يكــون للاسلام مذهب في الاخلاق كمــذهب « زينــون » الرواقي او كمذهب « ابيقور » او كمذهب « كانت » او « سبنسر » ؟

وهل يريدون ان يخضعوا منهج القرآن الاخلاقي للجدل والتجريح على الطريقة التي يتناولون بها مذاهب هؤلاء الاخلاقيين ؟

ما بالنا نسمع اليوم اناسا ينسبون الاسلام الى مذاهب افراد فــي السياسة او الاجتماع او الاخلاق!فهل سر هذا هو الجهل بالاسلام او الكيد للاســلام ؟

نسمع مثلا « الاشتراكية الاسلاميــــة » او « الديموقراطيــة الاسلاميــة » وليس للاسلام مذهب اخلاقي • فما هذا ؟

ان الاسلام لا يعرف الاشتراكية ، ولا يعرف الديموقراطية ، ولا المذهبية • وانمـا الاسلام دين وشرع ، له خصائصه ومناهجه التي يتميز بهــا في الحكم والسياسة والاجتماع والاقتصاد والاخلاق •

للاسلام كيان خاص و« شخصية معنوية » خاصة ، وهو سابق غير مسبوق في كل مــا قرره في مسائل الحكم وسياسة الشعوب ، ونظــام

الاجتمــاع البشري •

فكيف يستساغ عند بعض « المستسلمين » ان يغمطو الاسلام بنسبته الى افكار ظهرت بعده وتلمذت عليه ؟ وكيف ينسب السابق الى اللاحق والعكس هو الصحيــح ؟

ان من حق الاسلام ان يحكّم في هذه الافكار وان تنزل هي عليه ، ان وجدنــا الى ذلك، سبيلا :

« فــلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيمــا شجر بينهــم ، ثم لا يجدوا في انفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما » •

عبد الحميد العبادي

كيف كان الرسول يسوس أصحابه

لقد تحدث المؤرخون فأكثروا من قدرة الاسكندر قديما ونابليون حديثا ، على اختيار الرجال وأجتذابهم واصطناعهم ، فوصفوا صبر اصحاب الاسكندر ، على اهوال حروبه المتلاحقة ، ومشاق اسفاره البعيدة المترامية ، وبينوا كيف بلغ من اخلاص اصحاب نابليون له انهم عندما سيرهم لويس الثامن عشر لقتاله بعد فراره من جزيرة البا ، لم يسعهم الا ترك صفوفهم والانضمام الى نابليون • فاضطر لويس الثامن عشر للخروج من فرنسا جملة •

ولكن هؤلاء المؤرخين انفسهم يذكرون مع ذلك ان الاسكندر عندما طوحت به فتوحه الى اقاصي المشرق واراد التوغل في بلاد الهند ، امتنع عليه جنده ، وحملوه على ان يعود بهم ادراجه ، وان رجال نابليون لم ينتصروا لقضيته بعد كسرته في واترلو • بل ان قائدا من اشجع الشجعان هو المارشال (ناي) كما لقبه نابليون ، قد اضطرب في ولائه بين آل بوربون ونابليون ، فجر بذلك على نفسه البوار •

ليت اولئك المؤرخين اطلعوا على سيرة محمد بن عبدالله ! اذا لعلموا ان الرسول العربي قد بذ الاولين والآخرين في فن اختيار الرجال واجتذابهم واستخلاص طاعتهم له ولدعوته في حياته وبعد مماته •

ذلك بأن محمد بن عبدالله لم يكن يتنزل من اصحابه منزلة ، فاتح مغامر ، ولا منزلة جبار يريد علوا في الارض ، ولكن منزلة الاب الشفيق ، والمعلم الحكيم ، والطبيب العالم بادواء النفوس واساليب علاجها •

وكان عليه الصلاة والسلام يروض اصحابه ويسوسهم على هذا الاعتبار وحده • ونحن نقص على القارىء من سيرته عليه الصلاة والسلام مع اصحابه

بعض ما يوضح هذه الرياضة ويجلو تلك السياسة •

***

عندما هاجر الرسول واصحابه من قريش الى المدينة ، رأى ان يحكم اسباب المودة بين المهاجرين والانصار • فعمد الى المؤاخاة بين الفريقين • فكان يؤاخي بين المهاجري والانصاري • مرتبا على تلك المؤاخاة وجوب التناصر والتعاون في الحياة ، والتوارث بعد الموت •

وقد ظل هذا التوارث جاريا على هذا النظام الى ان شرعت احكام الميراث ، فصار التوارث يجري عندئذ على مقتضاها •

الا ان فريقا من اهل المدينة يتزعمهم عبدالله بن ابيّ ، وقفوا من الدعوة الاسلامية وصاحبها ، موقف العناد والمعارضة ، ونظروا الى الرسول والمهاجرين نظرهم الى قوم دخلوا عليهم بلدهم وزاحموهم فيه، واستبدوا به من دونهم ، فكانوا يتطلعون الى الافلات من النظام الجديد والعود الى الحال السابقة في المدينة •

هؤلاء هم المنافقون كما سماهم القرآن الكريم وعرفتهم السيرة النبوية • ولقد لقي الرسول منهم عنتا شديدا ، ولكنه كان يداريهم ويحتاط منهم في اناة ورفق يستثيران منتهى الاعجاب •

من ذلك ما حدث في غزوة بني المصطلق في السنة السادسة للهجرة ، فانه لما فرغ الرسول من قتال بني المصطلق ، اقبل المسلمون على ماء هناك يستقون منه ويسقون ، فازدحم على الماء واقتتل عليه رجلان ، احدهما يقال له جهجاه الغفاري ، كان اجيرا لعمر بن الخطاب • ويقال للآخر سرار ابن وبرة الجهني كان حليفا للانصار •

فصرخ الجهني : يا للانصار ! وصرخ جهجاه : يا للمهاجرين ! فغضب من ذلك عبدالله بن ابي،وطفق يلوم من كان حاضرا من قومه لانهم

احلوا للمهاجرين ديارهم ، ولج به الغضب حتى قال :

« لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الاعز منها الاذل » •

وهي المقالة التي سجلها القرآن الكريم • وبلغت مقالة ابن ابي رسول الله فاغتم لذلك غما شديدا • وكان عمر بن الخطاب عنده ، فأشار عليه بقتل ابن ابي ، فأجابه الرسول : « فكيف يا عمر اذا تحدث الناس بان محمدا يقتل أصحابه ؟ » •

ولكي يشغل الرسول الناس عن التحدث في هذا الامر ، امر من فوره بالرحيل ، وذلك في ساعة لم يكن من عادته ان يسير فيها •

وراح عليه السلام واصحابه يطوون المراحل ويصلون الليل بالنهار سيرا وسرى حتى بلغوا المدينة • واذا بالحال قد تغيرت من جميع وجوهها •

فهذا عبدالله بن ابي قد اتى الى الرسول يحلف له انه ما قال ما بلغه عنه • وهذا ابنه يطلب الى النبي ان كان لا بد آمرا بقتل ابيه ، ان يتولى هو اي الابن قتله • فيقول له الرسول :

« بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا » •

وهؤلاء رهط عبدالله بن ابي ، قد استخزوا لسلوكه ، واصبحوا كلما احدث حدثا ، هم الذين يعنفونه ويؤنبونه •

هنالك اقبل الرسول على عمر بن الخطاب وقال له :

« كيف ترى يا عمر ؟ اما والله لو قتلته يوم قلت لي اقتله ،لارعدت له آنف لو امرتها اليوم بقتله لقتلته » •

فقال عمر :

« قد والله علمت لامر رسول الله اعظم بركة من امري » •

***

والى القارىء مثلا آخر قد يكون ابلغ مما تقدم في بيان ما نحن في صدده .

رووا انه لما فرغ الرسول من صلح الحديبية ، رأى اكثر من كان معه ، ان الرسول عليه السلام اعطى في هذا العهد لقريش ، اكثر مما أخذ . فهم لم يدخلوا مكة في عامهم ذلك ، بل سيعودون من حيث اتوا .

كما قبل الرسول ان يرد على قريش كل من اتى اليه منها بغير اذن وليّه ، والا ترد اليه قريش من يأتي اليها ممن هو مع محمد .

وفوق ذلك قد رد الرسول الى قريش ، ابا جندل بن سهيل بن عمرو ، وهو رجل مسلم ، انفلت الى جماعة المسلمين بعد تمام عقد الصلح .

وساور الناس غم شديد اشرف بهم على الهلاك ، حتى انهم عندما امرهم النبي ان ينحروا بدنهم ، ويحلقوا رؤوسهم لم يطعه منهم رجل واحد .

فدخل الرسول على زوجه ام سلمة ، وذكر لها ما لقي من الناس ، فقالت له : اخرج ثم لا تكلم احدا منهم بكلمة حتى تنحر بدنتك وتدعو حالقك فيحلقك .

فقام الرسول ، فخرج فلم يكلم احدا منهم كلمة حتى نحر بدنته ، ودعا حالقه فحلقه . فلما رأى القوم ذلك تواثبوا ينحرون ويحلقون .

وفي رواية ابن اسحق ، عن ابن عباس ، انه حلق رجال يوم الحديبية ، وقصر آخرون ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« يرحم الله المحلقين » .

قالوا : والمقصرين يا رسول الله ؟

قال : « يرحم الله المحلقين » .

قالوا : والمقصرين يا رسول الله ؟

قال : « والمقصرين » •

فقالوا : يا رسول الله ، فلم ظاهرت التراحم للمحلقين دون المقصرين؟

قال : « لـم يشكـّوا » •

* * *

ويروون انه كان عليه الصلاة والسلام، قد خصص المؤلفة قلوبهم من قريش وقبائل العرب من غنائم هوازن بعطايا جسام لم يعط مثلهـا احـدا من الانصار ، فوجد الانصار في انفسهم حتى قال قائلهم :

لقي والله رسول الله قومه •

ودخل عليه سعد بن عبادة وابلغه رأي قومه ، فقال له الرسول :

« فأين انت من ذلك يا سعد ؟ »

قال سعد : ما انا الا رجل من قومي •

قال عليه الصلاة والسلام : « فاجمع لي قومك في الحظيرة » •

فلما جمعهم سعد اتاهم الرسول ، فحمد الله واثنى عليه بما هو اهله ثم قـال :

« يا معشر الانصار ! مقالة بلغتني عنكم وجدة وجدتموها عليّ في انفسكـم ؟ ألم آتكم ضلاّلا ، فهداكم الله ، وعالة فاغناكم الله ، واعداء فألف الله بيـن قلوبكم ؟ » •

قالوا : بل الله ورسوله امن وافضل •

ثم قال : « الا تجيبونني يا معشر الانصار ؟ »

قالوا : بماذا نجيبك يا رسول الله ؟ لله ورسوله المن والفضل •

قال : « اما والله لو شئتم لقلتم ، فلصدقتم ولصدقتم ، اتيتنا مكذبا فصدقناك ، ومخذولا فنصرناك ، وطريدا فآويناك ، وعائـلا فآسيناك ،

اوجدتم يا معشر الانصار في انفسكم لوعة من الدنيا ، تألفت بها قوما ليسلموا ، ووكلتكم الى اسلامكم ؟

الا ترضون يا معشر الانصار ان يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله الى رحابكم ؟ فوالذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرءا من الانصار ، ولو سلك الناس شعبا ، وسلكت الانصار شعبا لسلكت شعب الانصار • اللهم ارحم الانصار وابناء ابناء الانصار » •

قال ، فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم وقالوا :

رضينا برسول الله قسما وحظا • ثم انصرف رسول الله وتفرقوا •

* * *

من هذه المثل تتبين الاسس التي كانت تقوم عليها سياسة الرسول عليه السلام لاصحابه •

كانت سياسته هذه تقوم على جمع الكلمة والحلم والرفق ، فبذلك كان عليه السلام يقتاد القصي ، ويتألف النافر ، ويحمل المحسن على ان يزداد احسانا •

على ان الامر لم يكن مجرد تأليف وحلم ورفق ، بل كان من وراء ذلك كله الاسوة الحسنة والروح المتدفق ، والقلب الرحيم ، والخلق العظيم ، والعلم بطبائع النفوس واسرارها الذي لا يدرك كنهه ولا يسبر غوره •

عبد المنعم خلاف

الإسلام والمعترك الأبدي بين الخير والشر

القرآن ينزل المعترك الابدي بين الخير والشر في الارض منزلة الاعتبار والاعتراف به ، ويدعو معتنقي مبادئه الا يهملوا النظر الى هذا العراك وما وراءه من نتائج ، وان يحملوا انفسهم على الاخذ باسباب الاهبة للانخراط في سلك المحاربين في صفوف الخير ، حربا لا هوادة فيها ولا تخاذل ، ولا غفلة من ان الشر اذا وجد سبيلا الى السيطرة على الخير فلن يرحمه ولن يتركه للحياة .

انهما ضدان ابديان ، احدهما مبصر ذو رحمة ، والثاني اعمى ذو بطش شديد .. هما قانونان طبيعيان لهما ما لقوانين الطبيعة المادية من صرامة وآثار ، ولكن مجالهما النفس ذات العالم المائع الذي لا حدود بين امواجه الا ما يقيمه الفكر من حدود اليقظة والادراك ، والا ما تقيمه الدولة الرشيدة من وسائل التربية والتنبيه .

وكما ان الناس يخشون ان يمدوا ايديهم الى منبع كهربي خوف الصعق والاحتراق .. كذلك يجب ان يخشوا ان يمدوا نفوسهم واخلاقهم الى منابع الشر خوف الصعق والاحتراق والضياع بين قوى الكون العمياء ، التي ليس فيها الا بصيرة واحدة هي منطقة « الضمير » الذي هو قبس من روح خالق الوجود .

* * *

ليس في القرآن صوفية بلهاء تمحى عندها الحدود بين الخير والشر ، ويختلط عالماهما ، وانما فيه رحابة هي عفو القادرين وسماحة المربين الذين يعطون الطفولة البشرية حقها من فرص الاتعاظ الذاتي ..

وفيه سماحة الرعاة الذين يتركون القطيع يرتع في باحة الحدود

المرسومة ، ويغفرون له اللمم الاجتماعي الذي لا يضير الاسس الاصيلة للحياة ..

ولكنهم مع ذلك يقظون غاية اليقظة للحدود ، لا يدعون فيها ثغرة ينحدر منها اعداء الاجتماع : من قوى الشر والاثم والجريمة والجهالة التي تتخطف النفوس البريئة كما تتخطف الذئاب والثعالب الحملان الوديعة والاطفال الرضيعة في غفلة من الحراس .

القرآن يعتبر الشر كنمر غاشم يهجم دائما ولا يرتد ، فهو يهاجمه في اغلب آياته ممثلا في اشخاص الفجار والجناة على الحياة ، الذين هم ثمرات معطوبة ، من ثمرات الانسانية ، تنقل العطب والفساد والمحق الى سائر نبات الحقل الانساني ، فيجب تطبيبها اولا واعطاؤها فرص العلاج والشفاء ، فان صحت كان في صحتها نماء وبركات وزيادة في المحصول الانساني الصالح ، وان لم تصح كان من الواجب اهدارها وبترها ، وحسم دائها ان يتسرب الى الثمرات الصحاح التي فيها رجاء الحياة وتقدم خطواتها في طريق النمو والارتقاء !

* * *

هؤلاء يريدون ان يجعلوا الدين صورة من التسامح المطلق على دواعي هذا المعترك ، انهم لم يفقهوا الحياة فلم يفقهوا الدين .

لم يفقهوا الحياة لانها ما زالت ولن تزال تكذبهم وتأخذ الناس الى غير ما يتوهم هؤلاء ، لان المعترك يزيد على الايام حدة وشدة وتعقدا وايغالا في ساحات الصراع والصدام والمنافسة والمغالبة .. وهؤلاء يئنون فيه انين نساء ضعاف او حملان وديعة تثغوا بين الذئاب ، فتمزق انياب الذئاب حناجرها !

ومعركة الحياة هذه لها عذرها الواضح في انطلاقها الآن بدون قيود

الاديان ، لان اغلب الاديان السائدة تدعوها الى غير ما في طبيعتها ..
وقد صارت حياة قوية السلطان ، بالغة الحجج والآثار ، واصلة الى أعماق النفوس ، تنتزع حججها من دماء الناس التي تغلي في العروق ، وشهواتهم التي تحتدم في الابدان ، ومن روابط الشبكة القوية التي تربطهم بالارض ربطا وثيقا .

فكيف تضحي الانسانية بكل هذه الدواعي القاهرة وتعصاها ، وتنحاز الى تلك الاصوات الخافتة التي وقف اصحابها على شاطىء اللجة يقولون للغرقى والسابحين : مالكم هكذا تغرقون ... ! سيروا على الماء بالاقدام .. واعبروا المحيط بدون ابتلال ..

لا ! لا بد من نزولكم ايها الدعاة الى اللجة تصارعون امواجها ، وتحسون ثقل اعبائها ، وتقاسون عذاب الخبط فيها بالايدي والارجل ، ويصيبكم البهر والاعياء من شهيق وزفير متلاحقين ، لتنجوا هؤلاء الغرقى بايديكم ، وبسفن الانقاذ واطواف النجاة العملية ، بدل ان تحاولوا نجاتهم بالكلام ومد الايدي اليهم من الشاطىء البعيد .

وقد كان اكثر الذين حملوا الاسلام الاول تجارا وسياسيين ، وفرسانا تمرسوا باسباب الحياة وعركوها اختبارا وابتلاء ، ولم يكونوا بعزلة عن العقل العام للعرب والامم المجاورة لها ولم يكونوا عجزة او معتوهين او اذلاء وذوي عاهات ضاقت بهم سبل العيش ، فجاؤوا يحترفون الدين للارتزاق بحكاية قضاياه ومسائله ، بل حملوه الى الدنيا حمل جهاد به في كل سبيل من سبل الحياة العملية المادية ، ونزلوا بكلماته الى الاسواق والحقول والمصانع والجيوش ، كما درسوها في المعاهد والمساجد .

* * *

يجب ان يشعر الذين يؤمنون بالمثل العليا ، انهم مضطرون الى مواجهة الحياة الحالية بالوضع الآتي :

ان يكافحوا عوامل الشر والفساد بوجوه كالحة كوجوه اهل الشر والفساد ويجاهدوها بمنطق الخديعة والقسوة وادراك الموقف ، ولا يبيتون البلاهة والغفلة عن مقتضيات الحال ..

وان يحتضنوا بيدهم الاخرى المثل العليا ، وينموها في مناطق نموها المأمونة ويخلوا اليها يحدثونها ويكرمون اهلها ويصطفون معهم منطق السمو والكمال والرحمة ، والاغتفار ومراعاة مقتضيات الحال كذلك .

اي انهم يكونون كمن يضم ابنه بيد رفيقة لينة ، ويكافح عدوا يهاجمه ويهاجم ابنه بيد اخرى قاسية باطشة ، فلا بد له ان يكون يقظ الفؤاد لما يقوم به من عمل مزدوج متناقض .

وهذا الازدواج في الشخصية ، الذي تحتاجه البيئة في عصور الانتقال والاضطراب ، يكلف اصحابه ثمنا غاليا من التمزيق والتبضيع ، ومشقة السير بخطوتين في طريقين في آن واحد :

الا انه موقف لا بد منه لكل نفس آمنت بالحق في زمن الكفر به، وانتدبت قواها للدفاع عنه ، وتريد في الوقت ذاته الا تضيع في معركة الحياة المعاشية في امم لا تدرك احبابها وخدامها الحقيقيين ، ولا ترحمهم ولا تبالي بهم في اي واد هلكوا وهلكت ذريتهم من الجوع والحرمان !

* * *

لقد جابهت نفس رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم ، العالم الوثني والكتابي بروح سامية رحبة حسنة الظن في اوائل عهدها بالدعوة ، وحسبت ان الحق الواضح عندها ، لا بد ان يكون واضحا لديهم

فيسرعوا اليه ولا يكلفوهـا عناء في قبوله ، فكـانت تفيض بالسلام والكرم مع اعدائه واعداء الحق •

ولكنه بعد ثلاثة عشر عامـا ، تبين ان الشر عنصر عريق خالـد لـه جنوده وسدنه وكهان يعيشون به ، ويدافعون عنه ، كما يعيش هو للخير والحق ويغني لهمـا ويدافع عنهمـا •

وقد مكث تلـك الثلاث عشرة سنة يدعو بالحسنى ، ويقلب الحجج على كل وجه ، ويتحمل الاذى ما كان يجب ان يفتح العيون وينبه الاذهان الى ان رجلا يتحمل مثل ما تحمله جدير ان يكون موضع الاعتبار والتفكير والاقتناع بصدق دعوته والقفو على آثاره •

ولكن دولة الباطل وسدنها وكهانها دولة فطنة تنظر بعيـدا • وقـد علمت من اول يوم ان مـا يدعو اليه محمد هو الحـق عـدو مصالحهـا الدنيوية ، فان هي اطاعته ، فقدت عزها وعرشها وكل مـا لها مـن جـاه وسلطان • فاعلنت العصيان من اول ساعة ، وقـال قائلهـا ابـو لهب : « تبا لك ألهذا جمعتنا ؟» • كمـا قال ايضا : « خذوا على يديه قبل ان تجتمع العرب عليـه » •

ومكثت امواج الدعوة للحق تنكسر على صخرة الباطل الصماء ، ولا تنال منهـا الا حصى صغارا •

عندئذ استيقظ الحق الاعزل لنفسه وعوامـل ضعفـه ، ورأى الله لرسوله ان العمر يذهب سدى مع مخاطبة هذه الصخرة الصماء ،فليلتمس سببا غير الكلام لتحطيمها ودفعها عـن طريـق دعوتـه ، ولدفـع اذى الباطـل عن الحق واهله •

فاستيقظي اذن يا عوامل التدبير للقوة والغضب بعد ان طال نومك

وليكن الحق المسلح والسياسة المهاجمة والسباق الدنيوي بيننا وبين قريش .

ولتكن حرب لا للغزو ولا لتحطيم حرمات الحياة ، وانما لصيانة حرمات الحياة ، وحفظ عوامل نموها نقية قوية .

وليكن التدبير والدهاء بجوار البراءة والطهارة والصراحة ، ليكون لدولة الايمان حارس على كل باب يمكن ان يدخل منه الاعداء المتربصون ، الذين ان يظهروا عليه لا يرقبوا فيه حرمة ولا ذمة .

وكان ما كان من استجابة الحياة كلها لدعوة الحق المسلح ، والعدل المجنح ، بعد ان رآهما الناس في منظر عجيب تجتمع عليه انظار عبّاد الجمال وعبيد العصا ...

* * *

فهل للمسلمين ان يفقهوا ان المثل الاعلى الاسلامي ، نزل في ارض حرة بين قوم احرارا اقوياء ، يتصلون بالطبيعة اتصالا مباشرا ، ليكون كاملا وراء قواعد العقل الكامل ، وآمال القلب الكامل ، الذي يحس الحياة في الطبيعة احساسا سليما عميقا رحبا ،فكان مجال الكمال الاجتماعي والفكري والتعبدي فيه اوسع مجال تنقطع فيه انفاس الحكماء والاصفياء والشرعيين والمصلحين الاجتماعيين ؟ !

محمد أحمد الغمراوي

حول عظمة الرسول

كتب الكاتبون في عظمة الرسول ما كتبوا ، فلم يبلغوا الا بعض قدره صلى الله عليه وسلم ، وانما يصف كل من ذلك ما يطيق .

فمن المحدثين من قارنه صلى الله عليه وسلم بابطال التاريخ ، وخرج من المقارنة ، بانه صلوات الله عليه ، بطل الابطال . فأخطأ بالمقارنة وبالحكم سواء السبيل ، لانه اوهم بهذه المقارنة وبهذا الحكم ، ان الرسول والبطل من قبيل واحد ، وليس كذلك . ولا يمكن ان يكون كذلك ، فشتان بين بطولة البطل ورسالة الرسول .

فرسالة الرسول صلوات الله عليه ، خرّجت الابطال وربّت عظماء الرجال . بل لم يعرف التاريخ عظمة في ابطاله تضارع او تقارب عظمة اصحاب الرسول رضوان الله عليهم .

واين في التاريخ — غير تاريخ الرسالة — من سما بنفسه عن الدنيا وعن الهوى كما سما اصحاب الرسول ؟

بل اين — الا في تاريخ الاسلام — من دانت له الدنيا بالفعل ، فأعرض عنها وعن زخرفها ، غير معتزل في جبل ولا مترهب في صومعة. بل حاكما بين الناس بالعدل وسائسا اياهم بالحق والحزم ، من غير ان يرزأهم عن دنياهم الا بقدر القوت ؟

ان بطولة ابطال التاريخ تتضاءل اذا قيست ببطولة اصحاب الرسول فكيف يمكن ان يحشر الابطال مع الرسول وبينه وبين اصحابه من البعد ما بين اصحابه وبينه صلوات الله عليه .

وفي الناس من التمس في العبقرية وجه الثناء على الرسول وتقديره، ولو جعله عبقري العباقرة ، وما وفى بل ما زاد على ان جعله فردا من نوع متجدد ، وان يكن نوعا نادرا في الناس •

فالذي يثني بالعبقرية كالذي يثني بالبطولة ، كل قد غفل عن ان العبقريين والابطال ، يوجدون في كل زمان • ولا كذلك الانبياء والرسل ، بله اعظم الرسل وخاتمهم سيدنا محمد صلوات الله عليه •

ثم في الناس من جاوز ذلك فزعم انه يثني على الرسول ، حين ينسب ما اجرى الله على يديه ، او ما اوحاه الله اليه ، كأن ذلك من عمله ، او كأنما بلغه باجتهاده ، ويجعله بذلك اعظم العظماء •

فكأنه صلى الله عليه وسلم ، لا يكون اعظم العظماء ، الا اذا كانت الرسالة من عنده ، او كان وحيها من وحي قلبه وفكره ، كالذي يجري في قلوب اهل الاصلاح والفكر وعلى عقولهم •

وليس هؤلاء ولا اولئك مهما ارتقوا ببالغي ادنى مراتب الرسالة في انفسهم او في اثرها في الناس •

ان كل ثناء على الرسول بما ينقص من رسالته ، جهل بالرسول وانتقاص له • وكل تصوير للرسالة بما يبعدها عن المعنى الالهي الحقيقي المعروف في الاديان ، ويدنيها من المعنى الانساني المجازي المعروف في كلام بعض الناس ، هو ستر للرسالة وتعطيل لها يمهد في النهاية للتحلل من الدين •

والمسألة ليست مسألة رغبة او رأي ، ولكن مسألة حقيقة وواقع • فالرسالة بالمعنى الديني ثابتة للنبي صلوات الله عليه ، وليس في هذا شك • وكل ما كان له صلى الله عليه وسلم من عظمة فهو من رسالته

واليهـا وليس في هذا شك ايضا •

فقد لبث في الناس عمرا من قبلها لم يعرف فيه بعظيم • ولمـا كانت رسالته صلى الله عليه وسلم ، اعم الرسالات واتمها ، كان هو صلوات الله عليه ، اعظم الرسل اذ اداها ، واكمل البشر • وهذا معنى يضيـق عنه ان يقال اعظم العظماء •

لقد لبث صلى الله عليه وسلم قبل الرسالة عمرا في الناس فكانوا يثنون عليه كمـا يثنون على فاضل فيهم • فلما اكرمه الله بالرسالة ،واكرم الخلق به ، تطور خلقا آخر وانسانا آخر ، وتطورت امته به امة اخرى في الامم ، وتحقق للانسانية مثلهـا العملي الاعلى فيه وفي امته في عهده •

ان من يعرف معنى رسالة الرسل ولم يلم بطرف كاف من حقيقتها ،لا يرى فوقها لانسان مرتقى،ولا يخطر له ان وراءها في مجال العظمة وراء •

لكن الالفة حالت بين الناس في هذا العصر الحديث وبين حقيقـة تقديرهـا كما تحول الالفة بينهم وبين حقيقة تقدير نعمة الله عليهم فـي وجـود الشمس والقمر والماء والهواء والشجر والسمع والبصر وسائـر ما انعم الله عليهم به في الفطرة ومظاهرها وآياتها •

ان هذه الفطرة مظهر قدرة الله سبحانه وعظمته ، وفيض حكمتـه ورحمته ، فهي منه سبحانه على الناس نعمة ، وهي على وجوده سبحانـه دليل ليس وراءه دليـل •

فما فيها من سر يبهر ، انما مرده اليه سبحانه • وما فيها من عظمة تقهر ، انما مستمدها منه سبحانه •

فعظمة العظيم في الوجود مرجعها الى موجد الوجود • هو اوجد وهو افاض على كل موجود ما افاض من عظمة ، بما اودع فيه من سر ،

وبما فطره عليه من سنن جلت عن ان يغيرها او يبدلها مخلوق في الارض او في السماء .

فاذا مددت هذا التفكير مدا ينقله من فطرة ما يحيط بالانسان الى فطرة الانسان ذاته ، وتصورت ان خاطر الفطرة سبحانه ، قد اختص واحدا من الناس ، بوحي مباشر ورسالة الى البشر يبين لهم بها سبحانه السنن التي خطر عليها ارواحهم ، وناط بها وباتباعها عزتهم وصلاحهم في الدنيا وسعادتهم في الآخرة .

اذا تصورت اصطفاء خالق الخلق لانسان رسولا على هذه الصورة ، ايقنت ان ليس يداني مقامه في الناس احد وان عظم ، وادركت عظيم رحمة الله ، وعظيم نعمته على البشر في ذلك الرسول .

لكن مجرد احاطة الانسان بسنن الله في النفس والروح والاجتماع على يد رسول ، لا يكفي . فقد يخطىء الناس الفهم والتطبيق .

فكان من حكمة الله ورحمته ، ان جعل رسالة الرسل تشمل شقّي التبليغ : تشمل التبليغ النظري على لسان الرسول ، والتبليغ العملي بالحياة العملية للرسول .

فانظر الى النبي او الرسول — اي نبي من الانبياء ، واي رسول من الرسل — ما اثقل ما حمل وما اعظم .

كلفه الله بتبليغ دين للناس على الوجه الحق ، ثم كلفه كغيره بالعمل بالدين كما انزل ، لا يحيد عنه ولا يخطىء ، لان الخطأ منه ليس كخطأ من احد .

فالخطأ العمد منه في القول او العمل كذب على الله ، والخطأ غير العمد ان وقع منه لا يقر عليه بل ينبهه الله اليه . ويبلغ هو التنبيه الى

الناس حتى تتحقق حكمة الله من النبوة والرسالة ، وحتى لا يلتبس على الناس باطل بحق في دين الله •

ومن هنا يمكن اتخاذ معايير عدة لتقدير عظمة الانبياء والرسل ، احدها استنباطي يتعلق بما ينبغي ان يكون عليه النبي او الرسول ، حتى يصلح لتلقي الوحي من الله سبحانه • والباقي معايير تكاد تكون كمية في طبيعتها لانها تتعلق بمقدار ما يبلغ الرسول من قول ، ومقدار ما تقتضيه الرسالة منه من عمل ، ومقدار ما لاقى في سبيل التبليغ من مشاق واذى ، ومقدار صبره على الاذى في سبيل الله • ومقدار تعدد نواحي الحياة التي جاء الدين ليشرع لها وليرقى بها ، ولينظمها طبق سنن الله في الفطرة • ثم هناك معيار ايجابي آخر ، هو ما أصاب الرسول من نجاح في رسالته كما يبدو من آثارها في الناس •

فهذه معايير عدة صالحة لان تكون حسابية كما ترى ، وتطبيق اي من هذه المعايير ، يحتاج الى احاطة وجهد وتوفيق من غير شك •

لكنا لسنا في حاجة الى التطبيق التفصيلي لتبيين ، ان محمد بن عبدالله صلوات الله عليه ، هو اعظم الرسل حقا واكمل البشر •

فرسالته اعم الرسالات وارقاها ، لم تدع ناحية من نواحي الحياة الانسانية للفرد وللجماعة الا شملتها بتشريع ، ومع ذلك فقد بلغها صلوات الله عليه في نحو ثلاث وعشرين سنة احسن تبليغ وابينه وأتمه ، بالقول والعمل •

فالقرآن الكريم هو ما هو ليس للنبي منه حرف ولم يسقط منه حرفا • والسنة الكريمة هي ما هي تفسر القرآن ، كلام الله تفسير صدق بالقول والعمل • واثر الاسلام في الناس في عهد النبي ، وفي

الانسانية من بعده لا يزال يعجب به العاجبون .

ان من العجب العجاب ان ينهض انسان أيا كان بكل ما في الاسلام من تكاليف وتعاليم وتشريع .

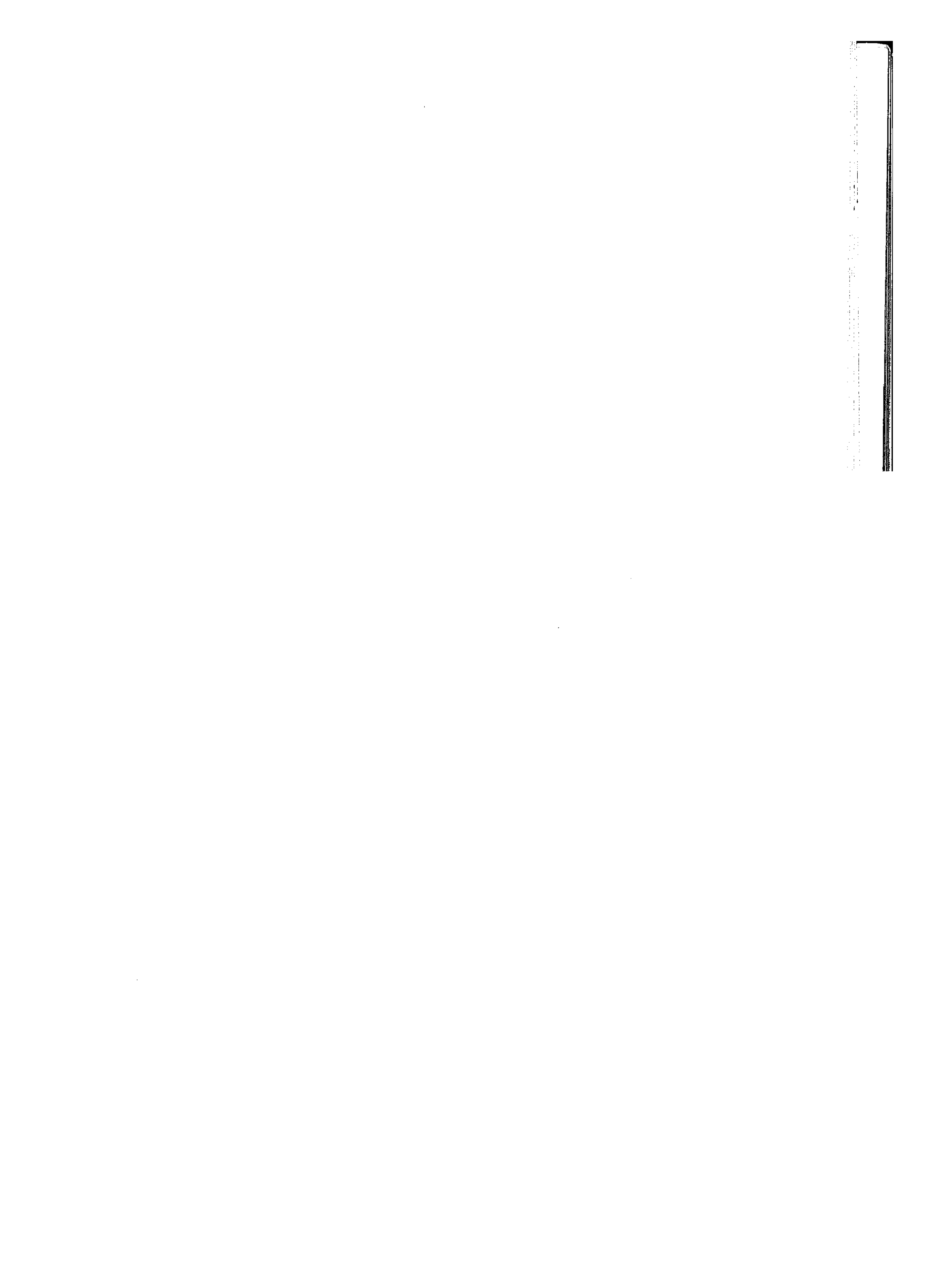
ان الانسانية كلها افرادا وامما ، لم تستطع نهوضا بكل ما كلفها الاسلام ، بعد الحقبة الاولى التي طبق فيها الاسلام اتم تطبيق في نصفها الاول في عهد الرسول ، واقرب تطبيق في نصفها الثاني في عهد الخلافة الراشدة .

فكيف استطاع محمد صلوات الله عليه ، ان ينهض بعبء الاسلام كله في نفسه وفي الناس ، حتى لم تجد ام المؤمنين عائشة رضي الله عنها وصفا له الا قولها : « كان عمله ديمة » و « كان خلقه القرآن » .

أشهد ان محمد بن عبدالله هو رسول الله حقا . اذ كيف يقوى « على سيرته صلى الله عليه وسلم ، الا رسول ، ورسول محص الله فطرته ومحضها ، واعدها وامدها ،واستخلصها سبحانه من بين البشرية كلها طبق سننه في الاستخلاص والاعداد ، حتى اذا آن الاوان وجد في البشر انسان واحد ، كان هو وحده الصالح لتلقي الرسالة العامة الكاملة ، وقوي هو على العمل بها ، اصولها وفروعها في نفسه وفي الناس.

هذا هو المقياس الحق لعظمة الرسول الكريم : انه وحده نهض بما كلفت به الانسانية قاطبة ، فلم تستطعه كله . وتفرق ما استطاعه صلى الله عليه وسلم في الناس اجمعين ، ينهضون به جملة ان استطاعوا ، ويتأسى المتأسي به في ناحية يلتزمها ، فيصبح في الناس مثلا من امثلة الكمال .

وبعبارة اخرى ، ان سنن الله سبحانه التي يتحقق بها الكمال الانساني ، قد تحققت فيه صلوات الله عليه ، فصارت حقيقة واقعة في الكون ، مجتمعة في فرد ومنتشرة في امة • وصار ذلك الفرد هو المثل الاعلى للانسانية ، لا يمكن ان يبلغه الناس على مر الزمان وان اجتهدوا ولكنهم يقربون منه شيئا فشيئا كلما اجتهدوا •



الدكتور عبد الوهّاب عزّام

مِن أُخلاق القرآن

العفو خلق يسمو بصاحبه عن الانتقام ، ويكبر به عــن المجازاة ، ويتعالى عــن ان يلقي الشر بالشر ، ويجزي السيئة بالسيئة •

العفو خلة تؤثر الرحمة على العقاب ، وتحل المودة محل العداوة ، والوئام محل الخصام • ترى الرجل يؤذي في نفسه او ماله ، فاذا قدر على خصمه ، استكبر ان ينزل اليه فيأخذه بجريرته ، وآثر ان يغفــر ويرحم ، ووجد في هذا الاحسان من العزة والعظمة والطمأنينة مــا لا يجــد في الانتقــام ، ولقاء الجناية بجزائها •

وانما العفو عند المقدرة • فليس الذي يصبر على الضيم ، ويخنــع للقوة ، ويستسلم للظلم عفوا ، ولكن خائفا ذليلا ، رحــم اللــه ابا الطيب المتنبي الذي يقــول :

كل حلم أتى بغير اقتدار   حجة لاجىء اليها اللئــام

وقد قال تعالى في وصف المؤمنين :« والذيــن اذا اصابهم البغــي ينتصرون » • وقال بعض المفسرين بذلك انهم كانوا يكرهون ان يستذلوا فــاذا قدروا عفــوا •

وعظماء الناس يؤثرون العفو ما لــم يجــدوا فيه مفسدة لامــر من امور الديــن والدنيا • وقد عرف بذلك كثير من ملوك المسلمين ولا سيما الخليفــة المأمون العباسي •

ورويت في العفو عند المقدرة اخبار تنبىء عما يملك قلب الرجــل العظيم ، من الحلم والعفو في الخطوب الجسام • كما اثر مــن استعطاف المؤمنين في مقام العقــاب ما يذهب بالحفيظة ويوجب المغفرة •

كانوا يرون العفو وسيلة الى استصلاح النفوس وازالــة الاحقاد ،

واحلال الوئام محل الخصام فيؤثرونه على الانتقام •

قال رجل لسليمان بن عبدالملك : « ان القدرة تذهب الحفيظة ، وقد جل قدرك عن العقاب ونحن مقرون بالذنب • فان تعف فانت اهل للعفو ، وان تعاقب فيما كان منا » •

وقال آخر لبعض الامراء : « اسألك بالذي انت بين يديه اذل مني بين يديك ، وهو على عقابك اقدر منك على عقابي ، الا نظرت في امري نظر من برئي احب اليه من سقمي ، وبراءتي احب اليه من جرمي » •

وقال بعضهم : « ان عاقبت جازيت ، وان عفوت احسنت ، والعفو اقرب للتقوى •

والقرآن الكريم يحث على هذا الخلق الكريم ويهدي الناس الى هذه الخلة التي تلقى جهل الجاهل بحلم العفو ، وشر المسيء بخير المحسن •

سمى الله تعالى نفسه العفو ، قال : « فأولئك عسى الله ان يعفو عنهم وكان الله عفو[3] غفورا » •

وفي آية أخرى :

« وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون » •

« ان تبدوا خيرا او تخفوه او تعفوا عن سوء ، فان الله كان عفوا قديرا » •

وقد امر الله سبحانه الناس بالعفو فقال للرسول صلوات الله عليه:
« خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين » •
ويقول تعالى :

« فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظا غليظ القلب لا نفضوا

من حولك ، فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الامر » •

ونهى سبحانه ، ان يعاقب المسيء بحرمانه من الصدقة والبر فقال :

« ولا يأتل اولو الفضل منكم والسعة ان يؤتوا اولي القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله وليعفوا وليصفحوا ، الا تحبون ان يغفر الله لكم ، والله غفور رحيم »•

واجاز القرآن المجازاة بالعدل ولكن جعل العفو اقرب للخير فقال :

« وان تعفوا اقرب للتقوى » •

كما قال في وصف المؤمنين :

« والذين اذا اصابهم البغي هم ينتصرون،وجزاء سيئة سيئة مثلها،فمن عفا واصلح فأجره على الله ، انه لا يحب الظالمين • ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل • انما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الارض بغير الحق اولئك لهم عذاب اليم • ولمن صبر وغفر ان ذلك لمن عزم الامور » •

وقد اشاد القرآن بالعافين عن الناس وبين عظم جزائهم في قوله تعالى :

« وسارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والارض اعدت للمتقين الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين » •

وكانت سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم عملا بامر القرآن وتأدبا بآدابه • قال رسول الله :

« امرني ربي ان اصل من قطعني واعفو عمن ظلمني »

فانظر اليه يوم فتح مكة والجزيرة العربية في سلطانه ، وصناديد

قريش طوع امره ، وقد لقي ما لقي من المشركين منهم ، اكثر من عشرين عاما ، وفي كل بقعة من مكة والمدينة ، ذكرى ما لقي من ظلم وعدوان واذى ، وفي كل جماعة من قريش رجال قد قسوا عليه وعلى اصحابه ونالوا منه ومن دينه ، وصدوا عن دعوته جهد طاقتهم .

فما مد اليهم يوم الفتح والقدرة يدا بعقاب ، ولا جازاهم بما فعلوا ولا باقل مما فعلوا ، بل عفا عنهم عفوا عاما شاملا . ونال اكبر اعدائه اعظم نصيب من عفوه ورحمته . قال عليه الصلاة والسلام :

« يا معشر قريش ما تظنون اني فاعل بكم ؟ »

قالوا : خيرا . اخ كريم وابن اخ كريم .

قال عليه الصلاة والسلام : « اذهبوا فأنتم الطلقاء » .

وفر صفوان بن امية اعدى اعدائه خوفا من ذنبه ويأسا من العفو ، فأرسل وراءه النبي من يؤمنه واعطاه عمامته امارة الامان .

فلما طلب منه ان يجعل له الخيار شهرين ليدخل فيما دخل فيه الناس او يهاجر قال : انت بالخيار اربعة اشهر .

ولما اجتمعت عليه قبائل هوازن بعد الفتح وأرادت ان تؤلب عليه القبائل ، وترد فتح مكة هزيمة ، خرج الرسول لحربها وكانت واقعة حنين التي لقي فيها المسلمون ما لقوا من الهزيمة اول الامر .

ثم وثب الرسول وانحاز اليه انجاد اصحابه ، حتى انزل الله سكينته ونصره . فلما ظفر بالقوم وقد عظمت جنايتهم ، جزاهم بالاساءة احسانا وبالذنب عفوا . يقول الطبري :

اتى وفد هوازن رسول الله صلى عليه وسلم وهو بالجوانة وقد اسلموا فقالوا يا رسول الله انما اهل وعشيرة ، وقد اصابنا من البلاء ما

لا يخفى عليك ، فامتـــن علينـــا منّ الله عليك .

فقام رجل من هوازن ...فقال : يا رسول الله انما في الخطائر عماتك وخالاتك وحواضنك اللاتي كن يكفلنك (يعني انهم قوم حليمة مرضعـــة الرســـول) :

أمنن علينا رسول الله في كرم فانك المرء نرجـــوه وننتظر

فقال رسول الله : « ابناؤكم ونساؤكم احب اليكم ام اموالكم ؟ »

فقالوا : يا رسول الله ، خيرتنا بين احسابنا واموالنا ، بل ترد علينا نساءنا وابناءنا ، فهم احب الينـــا .

فقال عليه الصلاة والسلام : اما ما كان لي ولبني عبدالمطلب فهـــو لكم . فاذا انا صليت بالناس فقولوا انا نستشفع برسول الله الى المسلمين ، وبالمسلمين الى رسول الله في ابنائنا ونسائنا ، فسأعطيكم عنـــد ذلـــك واسأل لكـــم .

فلما صلى عليه الصلاة والسلام بالناس الظهر قاموا فتكلموا بالذي امرهـــم بـــه .

فقـــال رسول الله : اما ما كان لي ولبني عبدالمطلب فهو لكم .

وقال المهاجرون : وما كان لنا فهـــو لرسول الله .

وقالت الانصار : وما كان لنا فهو لرسول الله .

وقال الرسول : اما من تمسك بحقه من هذا السبي منكم فـــله بكل انسان ست فرائض من اول شيء نصيبـــه . فردوا الـــى الناس ابنـــاءهم ونســـاءهم .

ذلكم مثل من امثال تبين عن خلق رسول اللـــه ، وهو الخلق العظيم الذي اوحاه اليه القرآن ، وانما تتجلى عظمة العظيم بالعفو حين المقدرة ،

والترفــع عن الاقتصاص بالذنــوب •

وذلكم تأديب القرآن امة القرآن ، وتعليم رســول الله عباد الله • وانمــا يريــد القرآن ان يكون المسلمون اكبر من ان يذلوا اذا غلبوا ، واعظم من ان ينتقموا اذا قدروا •

يوسف الدجوي

من أخلاق الإسلام

الرحمة من اشرف الخصال واكرم الاخلاق ، وان الله لا يحب شيئا مثلما يحب الرحمة والتواضع ، ويكره شيئا مثل ما يكره القسوة والكبرياء •

وقد ورد في الحديث الصحيح : « ارحموا من في الارض يرحمكم من في السماء » • وذكر من للعاقل ها هنا لتغليب الاشرف على غيره • واياك ان تفهم من ذكرها انك لست مأمورا الا برحمة النوع الانساني فقط ، فانك مأمور بالرحمة لكل ذي روح •

ولقد قال صلى الله عليه وسلم : « في كبد كل رطبة صدقة » • واذا كانت امرأة قد دخلت النار من اجل هرة حبستها كما في الحديث الصحيح ، فلا غرو ان تدخل الجنة من اجل هرة ترحمها •

وقد ورد « ان الله رحيم ، وانما يرحم من عباده الرحماء » •ويقول الله سبحانه في الحديث القدسي : « سبقت رحمتي غضبي » •

وليس ذلك الحنان الذي تراه في قلوب الآباء والامهات في افراد النوع الانساني وسائر انواع الحيوان مما يسوقهم سوقا اضطراريا الى تعهد الولد ومراعاته في كل ما يجب له ، ولا تلك الشفقة التي تجدها من نفسك اذا رأيت مظلوما ضعيفا او فقيرا بائسا ، الا اثرا من آثار تلك الرحمة الالهية •

ومواساة الاخوان والجيران والشفقة على الفقراء والضعفاء من افضل الاعمال التي حث عليها الدين وندبت اليها الشريعة • وكل ذلك من آثار الرحمة الالهية ، التي قامت بها السموات والارض •

ولا محل هنا لتفصيل رحمته تعالى بك وفضله عليك بجري البحار

وتفجير الانهار ، وتيسير الانوار وخلق الليل والنهار ، وانبات النبات وبقية الآيات ، وانواع النعم المتواترات .

وقد قال تعالى : « فانظر الى آثار رحمة الله كيف يحي الارض بعد موتها » الخ ..

وبالجملة ففيك من الانسانية على قدر ما فيك من الرحمة ، وعلى قدر ما فيك من القسوة ، يكون بعدك من الله وانسلاخك من الانسانية ، فانك لا تتكمل الا اذا انفعلت نفسك بالكمالات ومكارم الاخلاق المرة بعد المرة ، وعلى قدر لين قلبك وسرعة تأثرك يكون قبولك لتلك الكمالات . واما ذلك القلب القاسي الذي لا ينفعل ولا يتأثر ، فانه بعيد جدا من الكمال، حيث كان غير مستعد للانفعال ولا قابل للنقش فيه .

وان من القلوب قلوبا كالحجارة او اشد قسوة وان من الحجارة لما تتفجر منه الانهار ، وان منها لما يشقّق فيخرج منه الماء . ومن كان بهذه الصفة فهو شقي في الدنيا والآخرة ، ممقوت لدى الله والناس .

وقد قرر الفلاسفة ان الانسان قد ينحط الى دركات هي اسفل من كل المراتب التي فيها انواع الحيوان واذا لا يكون انسانا في صورته .

وقد قال بعض الحكماء : ان من الناس من تفسد انسانيته فيصبح غير انسان . وقد اشار سبحانه الى ذلك بقوله :

« لقد خلقنا الانسان في احسن تقويم ثم رددناه اسفل سافلين الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات » .

ويقول جل شأنه :

« والعصر ان الانسان لفي خسر الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » .

ولا يمكنك ان تصل الى درجة الكمال الا اذا لـم تكـن من ذوي القلوب القاسية والنفوس الجامحة •

واذا لو اتصف الناس بالرحمة لكانوا كاملين في انسانيتهم ، فلـم يفعلوا فعل الوحوش الضارية باخوانهم وبني نوعهم •

لو تمت الرحمة في النفوس لما التهمت الامم القوية الامم الضعيفة ، ولما فعلت بهم ما لا تفعله اقوى الحيوانات بأضعفهـا ، على ان الحيوان لا يفترس ابناء نوعه مهمـا كانت وحشيته وشراهته •

ولو تمت الرحمة في الاغنياء لما مقتهم الفقراء ، ولو تمت الرحمة في القضاة ، لما تأخرت القضايا السنين الطوال • ولا لحق اربابـها شديـد النكـال وعظيـم الوبال •

ولو تمت فيك الرحمة لدعا لك جيرانك واثنى عليك اخوانك • ولو تمت الرحمة فيك لبذلت النصح للعامة والخاصة اخلاصا لهم واشفاقا عليهم (والديـن النصيحـة) •

ولو تمت فيك الرحمة لاشفقت على القريب والبعيد ، ورحمت المبتلي والمعافى والانسان وغير الانسان •

بل نقول : لو تمت فيك الرحمة لكنت من المرحومين الذين يشفقون على انفسهم فلا يورطونها في الهلاك ولا يجلبون لهـا اعظـم الآفـات ، ويحرمونهـا من افضل انواع السعادات •

واجمال القول انه اذا استقام هذا الاصل للانسان في الدين ، استقام له سائره ففاز بخير الدنيا والآخرة • فأزل من نفسك القسوة وكـن رفيق الفؤاد • ولا تكن من غلاظ الاكباد فالراحمون يرحمهم الرحمن •

وفي الحديث الشريف : « لا تنزع الرحمة الا من شقي » • وعـن

ابي هريرة قال : قبل الرسول صلى الله عليه وسلم الحسن بن علي رضي الله عنهما ، وعنده الاقرع بن حابس ، فقال الاقرع : ان لي عشرة من الولد ما قبلت احدا منهم ، فنظر اليه رسول الله صلى عليه وسلم ثم قال :

« من لا يرحم لا يرحم » .

وعن ابي هريرة ايضا قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« بينما رجل يمشي بطريق اشتد عليه العطش فوجد بئرا فنزل فيها فشرب ، ثم خرج ، واذا بكلب يلهث يأكل الثرى من العطش ، فقال الرجل : لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان قد بلغ مني ،فنزل البئر فملأ خفه ماء ثم أمسكه بفيه حتى رقي فسقى الكلب ، فشكر الله تعالى فغفر له . قالوا يا رسول الله وان لنا في البهائم اجرا ؟ قال : في كل كبد رطبة اجر » .

وفي حديث نبوي آخر : « دخلت امرأة النار في هرة ربطتها فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من خشاش (١) الارض » .

وفي الآية القرآنية الكريمة « وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها » اي لا تطيقوا حصرها ، ولو اجمالا فانها غير متناهية . كيف لا وما من فرد من افراد الناس وان كان في اقصى مراتب الفقر والافلاس ، ممنوّا بأصناف البلايا مبتلى بأنواع الرزايا ، فهو بحث لو تأملته الفيته متقلبا في نعم لا تحد ، ومنن لا تحصى .

وان كنت في ريب من ذلك فقدر انه ملّكَ ملِكَ اقطار العالم ودانت له كافة الامم ،واذعنت اطاعته السراة ،وخضعت لهيبته رقاب القساة وفاز بكل مرام ونال كل منال ، وحاز جميع ما في الدنيا من اصناف

---

(١) خشاش الارض : هوامها وحشراتها .

الاموال ، من غير ند يزاحمه ، ولا شريك يساهمه • بل قدر ان جميع ما فيها من حجر ومدر يواقيت غالية ، ونفائس درر •

قدر انه قد وقع من فقد مشروب او مطعوم ، في حالة بلغت منها ، نفسه الحلقوم فهل يشتري وهو في تلك الحال بجميع ما له من الملك والمال لقمة تنجيه او شربة ترويه ، ام يختار الهلاك فتذهب الاموال والاملاك بغير بدل يبقى عليه ، ولا نفع يعود اليه ؟

كلا ، بل يبذل لذلك كل ما تحويه اليدان كائنا ما كان ، وليس في صفقته شائبة الخسران • فاذا تلك اللقمة والشربة خير مما في الدنيا بالف رتبة ، مع انهما في طرف التمام ، ينالهما متى شاء من الليالي والايام •

او قدر انه قد احتبس عليه النفس ولا دخل منه ولا خرج ، والحين قد حان واتاه الموت • اما يعطي ذلك كله بمقابلة نفس واحد ؟

فاذا هو خير من اموال الدنيا بجملتها ومطالبها برمتها • مع انه قد ابيح له كل آن من آنات الليل والنهار •

وان رمت العثور على حقيقة الحق ، والوقوف على ما جل من السر، فاعلم ان الانسان بمقتضى حقيقته الممكنة بمعزل عن استحقاق الوجود وما يتبعه من الكمالات اللائقة والملكات الرائعة بحيث لو انقطع ما بينه وبين العناية الالهية من العلاقة لما استقر له القرار ، ولا اطمأنت به الدار ، الا في مطمورة العدم ومهاوى الهلاك •

لكن يفيض عليه من الجناب الاقدس تعالى شأنه ، في كل زمان مضى، من انواع الفيوض المتعلقة بذاته ووجوده وسائر صفاته الروحانية والنفسانية والجسمانية ، ما لا يحيط به نطاق التعبير ، ولا يعلم به الا

العليم الخبير .

وتوضيحه انه كما لا يستحق الوجود ابتداء ، لا يستحقه بقاء ، وانما ذلك من جناب المبدأ الاول عز وجل .

فسبحانك سبحانك اللهم ما اعظم سلطانك ، لا تلاحظك العيون بانظارها ولا تطالعك العقول بافكارها ، شأنك لا يضاهى واحسانك لا يتناهى . نسألك الهداية الى مناهج معرفتك ، والتوفيق لاداء حقوق نعمتك ، لا نحصي ثناء عليك ، لا اله الا انت ، نستغفرك ونتوب اليك .

أبو بكر ذكري

مكارم الأخلاق
بين الأدب والفلسفة

— ١ —

فضيلة العدالـــة

العدالة بمعناها العام ، كالعدل والاعتدال ، كلمة معناها : الاستقامة والاستواء والتساوي والعدل والتعديل : التسوية والتقديم •

والى هذا المعنى ترجع كلمة (العدالة) التي يراد بهـــا الملكة النفسية المعدودة عند الاخلاقيين من امهات الفضائل الانسانية • والتناسب بين هذا المعنى الخاص المتعارف عند الاخلاقيين « وبين المعنى اللغوي السابق واضح بين ، لان الاعتدال النفسي الذي سماه الاخلاقيون عدالة وعدلا هو ايضا صورة من الاستقامة والاستواء والتساوي • وحسبنا ان نوضح هذا بمظهر القاضي المتصف بالعدالة ، اذ نرى مجلسه صورة مـــن التعادل والانسجام يسوي فيه بين الخصمين في النظرة والاشارة وشتى ضروب المعاملة ، لا يتحامل على أحد الا للحق وفي سبيل الحق ، فيبدو مجلسه صورة متناسقة منسجمة ترتاح لها كل نفس شريفة فاضلة ــ وفي مقابل العدالة والعـــدل والاعتدال ــ نجد الظلم والجور والجنف او ما هو بهذا المعنى •

وهذه الفضيلة عند الاخلاقيين نوعان : عدالة كلية ــ وعدالة جزئيـــة خاصة تنشأ عن سابقتها ، وهم يعنون بالعدالة الكليـــة اعتـــدال الملكات الانسانية في مجموعهـــا ما بين عقلية ــ وغضبية ــ وشهوية • بحيث لا يطغى بعضها على بعض • فالقوة العاقلة تسوس القوتين الاخريين وتمسك بزمامهمـــا وتصرف امرهما بقدر ، فلا تدع لقوة الغضب ان تطغى وتثور لاتفه الاسباب او لغير سبب ، فيغدو صاحبها كلبا عقورا وسبعـــا ضاريا

يهاجم غيره لسبب ولغير سبب ، حتى يبلـغ من العدوان غايته او يلقـى حتفه ـ ولا تدع كذلك لقوة الشهوة ان تثور وتطغى وتتخطـى القيـود والحدود ، فيصبح صاحبهـا بهيمة من البهم السائبة يتلوث بكـل وضر ، ويتمرغ في كل دنس ، ويلغ في كل حمأة • وبعض الاخـلاقيين يسمي النفس التي تنحرف هذا لانحراف بالنفس الخنزيرية ، نسبة الـى الخنزير الذي هو اقذر واشره ما عرف من انواع الحيوان •

كذلك لا تسمح القوة العاقلة لنفسها ، بأن تطغى على هاتين القوتين، فتعطلهمـا عما اوجدتها من اجله في الطبيعة الانسانية ، لان طغيان قـوة العقل وافراطها في قمع القوة الشهوية ينحرف بالمرء الى الرهبنـة والتأبل الذي هو اماتة للرغبات الجنسية وافراط في التقشف والحرمان • وطغيانها على قوة الغضب والافراط في كبحها ، ينحرف بالمرء الى الجبانة والانكماش والمهانة ، وفي هذا وذاك ما ينحرف بالشخصية الانسانية عن سنن العدالة ، وينأى بها عن طريق المثل العليا •

اما الحد الوسط من الانسجام والتناسب والتعادل بين هذه الملكات ، فهـو ان تعمل كل قوة من هاتيك القوى الثلاث في حدود ما خلقت له ، فلا يترك العقل الزمـام للغضب والشهوة ولا يبالـغ في كبحها الى حـد التعطيل ، ولا تقصر هي في الاستزادة من العلم والحكمة ، وبـذا تبلـغ الشخصية الانسانية كمال وجودهـا وتتحقق لها فضيلة العدالة الكبرى التي هي كنز الحكمـة واصل الفضائل السامية وسلـم الوصول الـى السعـادة •

ذاك هو مجمل ما شرعته عبقرية افلاطون واستاذه سقراط زعيمـي تعاليم الحكمـة اليونانية في القرنين الخامس والرابع ق•م• ليكون منارة

هدى للانسانية في مهمه الحياة الطامس الاعلام •

وفوق ما تقدم ، حاول افلاطون في كتابيه «الجمهورية» و«القوانين» تحقيق هذا النوع من العدالة الكلية في بناء المجتمع المثالي الذي حاول بشتى النظريات ان يضع اسسه وقواعده • ومجمل وصاياه في ذلك ان توضع الطبقة الحاكمة في مكانة القوة العاقلة ــ وطبقة الجند في مكانة القوة الغضبية ــ والطبقة العاملة المنتجة مكان قوة الشهوة ، وان يسود بين هذه الطبقات الثلاث الكبرى من التوازن والتعادل والانسجام ما عرفناه سابقا من التوازن بين هذه الملكات الانسانية الثلاث ، فلا تجور الطبقة بالعسف والظلم على الطبقتين الاخريين ولا تترك الزمام للجند يعتدون بسبب وبغير سبب ، بل غضبا للحق وللشرف فحسب ، ولا تجور الطبقات المنتجة : من زراع وتجار وصناع بترك الزمام لها تحصل اسباب الحياة من حلها وحرامها •

فاذا تيسر لمجتمع ان يتناسق مثل هذا التناسق ويتعادل ، فانه سيحقق لنفسه اعظم ما يمكن من السعادة • وكل انحراف عن هذا التعادل يكون سببا لشقاء المجتمع واضطرابه وتدهوره ، وما نظن المقام يتسع هنا لبيان مدى الحفاوة التي تلقيت بها هذه التعاليم على مر اربعة وعشرين قرنا من يوم مولدها ، حتى ايامنا هذه التي ما تزال ترمقها بالاجلال والاعجاب وقديما شاد عليها الاخلاقيون الاسلاميون ابدع التعاليم الاخلاقية •

واما العدالة الجزئية الخاصة : فهي التي تعرف عن الاخلاقيين والسياسيين باسم « العدل » تلك الكلمة التي يراد بها الانصاف في توزيع الحقوق بين الافراد والجماعات • وهذا هو العدل السياسي الذي يظهر لنا على الاخص في تصرفات الحكام والمسؤلين من موظفي الدولة•

وهذه الفضيلة الجزئية العلمية هي التي اثارت اهتمام ارسطو معلم الفلسلفة الاول ، ولها كرس جانبا مهما من صفحات كتابه الخالد « علم الاخلاق الى نيقو ماخوس » وأثنى على المتصفين بها من المسؤولين عن الحقوق افرادا وجماعات ، وخص بالاعجاب تلك الصورة السامية التي تبدو في سلوك من ينصفون الناس من أنفسهم فوق انصافهم الاغيار بعضهم من بعض • وما أبدع قول ارسطو في تمجيد العدل :
« فما طلوع الشمس ولا غروبها بأحق منه بالاعجاب » •

ولعل أرسطو الفيلسوف العالم المشهور بتدقيقه العلمي الجاف الذي لا يقيم للعواطف وزنا — لم يتمالك نفسه أمام جلال العدل ان ينقلب شاعرا يبدي اعجابه بالعدل بهذا التعبير البديع الرائع •

وكذلك لعل الذين لم يوهبوا رقة الذوق الادبي ودقته ولطفه لن ينتبهوا الى دقة اختيار أرسطو لهذه العبارة فيقولوا : وأي اعجاب في طلوع الشمس وغروبها ؟ ان الشمس لتطلع كل يوم على الملايين من الناس دون ان تثير فيهم شيئا من الاعجاب •• ولو علموا ان طلوع الشمس وغروبها كل يوم على هذه الدقة التي عرفت بها في مواعيدها لتهب للعالم سر ما أودع فيها من أسباب الحياة ، بلا تمييز بين كائن وكائن ، انما هو ضرب من العدل معدوم النظير — لعذروا ارسطو في تعبيره ، ولعلموا انه هو أيضا في اعجابه بالعدل الى هذا الحد كان آية في العدل •

وفقنا الله أفرادا وجماعات الى العلم بالعدل ومكانته والتحلي به وهدانا سواء السبيل •

— ٢ —

وفضيلة العدالة صفة انسانية تتفاضل وتتفاوت تبعا لاسبابها

ومقوماتها في النفس الانسانية .

وهذه الاسباب والمقومات ، اما ان تكون امورا كسبية ارادية ، كالتعاليم والتهذيب في شتى ضروبه وأشكاله ، واما ان تكون امورا جبلية وهبات لا دخل للكسب فيها ، كرقة الطباع ، ودماثة الخلق التي تظهر احيانا مبكرة في الطفولة الانسانية ، اما بعامل الوراثة ، او بعوامل اخرى علمها عند مبدعها وخالقها تعالى . ولا بد لكمال فضيلة العدالة من تضافر هذه الاسباب والمقومات جميعا ، لاخراج شخصية انسانية ، كاملة العلم، موفورة الذكاء والانتباه، مهذبة الغرائز تدرك تمام الادراك ، الغاية التي خلقت لها والطريق الموصل اليها ، وتثق كل الثقة في المثل العليا ومراميها السامية ، وتفرق بين مطالب الانانية الفردية ، ومبادىء الواجبات الاجتماعية بحدود واضحة المعالم ، وترتبط مع مجتمعها برباط وثيق من « الشعور المتبادل » أو ما يسميه علماء النفس وعلماء الاجتماع : « المشاركة الوجدانية » عالمة تمام العلم بما لها على المجتمع ، وما للمجتمع عليها من حقوق وواجبات ، وتشعر شعورا واضحا مطردا بما للانسانية من قيم ذاتية .

أما عندما تنعدم تلك الاسباب والمقومات كلها او بعضها ، فان صفة العدالة تنعدم كذلك من الشخصية الانسانية ، فتنزل من درك الى درك ، حتى تنحط الى مستوى البهمية والوحشية ، شأن الهمج الطغاة ، الذين لا يعيشون على اديم الارض ، الا ليمثلوا تنازع البقاء بأخس الوسائل وأقبح المظاهر . وهذه الحال هي ما يسميها بعض الكتاب : « شريعة الغاب » . وعندي ان شريعة الغاب تظلم ، اذ يشبه بها ذلك النوع البشع من السلوك الانساني ، ان حيوان الغاب لا يعدو غالبا الا بدافع من الحاجة الملحة ، والجوع المستعر ، على حين ان الظالمين من

بني البشر يندفعون الى ذلك بعامل بطر الغنى وأشر القـوة « ان الانسان ليغطى ، ان رآه استغنى » •

وان الذين تستهويهم شياطين الجهل والغـرور والادلال بالقـوة والجاه والوصول ليحسبون انفسهم دائما ، خلقا آخر لا يمتون الى العالم المحيط بهم بصلة ولا يربطهم به سبب ولا نسب • ولو رجع اولئك الاغرار الى طبيعتهم العاقلة وأجادوا التبصر والفهم ، لادركوا تماما أنهم مرضى الجهل والهوس والكبرياء وحب الظهور والتعالي الكاذب ، الذي يخيل اليهـم ان الانسانية كلها تحت مواطىء اقدامهم ، وعلـى أشلائهـا يجب أن تحتك هاماتهم بنجوم السماء ، شأن فرعون اذ قال : « يا هامان ابـن لي صرحا لعلي أبلغ الاسباب أسباب السموات ، فأطلع الى اله موسى ، واني لاظنه كاذبا • وكذلك زين لفرعون سوء عمله ••• »

ولو أحسنوا التبصر اكثر فاكثر ، لعلموا ان هذا الشذوذ الخلقـي الغبي الوخيم الاعمى ليس الا مرضا لا يخفى على ذوي البصائـر مـن مخالطيهم ومواطنيهم ، وان من بين الانظار المصوبة اليهـم انظار ساخرين وضاحـكين ومستهزئين ، بينما يظن البلهاء انها جميعا انظار مكبرين ومعجبين •

ولو أمعنوا في التأمل لعلموا انهم لو اقتطعوا وافردوا افراد البعير المبعد عن اولئك الذين يحتقرونهم ، ويعدون على قدسية حقوقهم مـن اخوانهم ومواطنيهم ، لماتوا هزالا وكانـوا احقر من قلامة ظفر •• نعم •• لو امعنوا في التأمل وادركوا ذلك لهانت عليهم انفسهم وقدروهـا حـق قدرها ووقر في نفوسهم انهم كبقية الخلق ، من طين وماء ، وان عليهم للناس حقوقا بقدر ما لهم من واجبات ، وأن العدالة خير ميـزان من ينصفهم من الناس وينصف الناس منهم ، فيعيشوا سعداء ويعيش بهـم

مجتمعهم سعيدا قرير العين ، تسعهم جميعا رحمة الله وتفيض عليهم نعمه ظاهرة وباطنة •

وليست فضيلة العدالة ـ لسوء حظ الانسانية ـ بالفضيلة التي يسهل الحصول عليها ، ويتأتى الوصول اليها بأيسر الاسباب وأهون الكلف • انها ، على الضد من ذلك ، وعرة المرتقى عالية الذروة • هي فضيلة الحكماء الحقيقين ، وصفة الامراء النابهين ، وتاج الملوك الموفقين ، وحلية الرؤساء البارزين ، وسلاح الساسة الناجحين • ولا بد للحصول عليها من منبت شريف ونسب زكي ووراثة نقية من الشوائب ، وهمة نزاعة الى المعالي • أما الظلم فما ايسره واكثره • انه كأشواك اودية العوسج ، يكاد يسد على الانسانية مسالكها ، وينغص عيشها ويقضي مضجعها •

أما أثر العدالة في الجمعيات الانسانية ، فان التاريخ يرينا بملء أعيننا أنها أم العمران ، ودعامة النجاح وسبيل التقدم في مدارج الحضارة ، وأوثق وسيلة لبلوغ الامم أوج العظمة والمجد الباذخ ، كما أن الظلم كان ولا يزال سبب الفشل والخراب والانحطاط والضعف والتدهور الى حضيض الهون •

ولقد ضرب الله سبحانه « تعالى » لنا في كتابه الكريم ، أمثال أمم بادت وأنقرضت بعامل الظلم والعدوان وتناسي فضيلة العدالة السامية « لقد كان لسبأ في مسكنهم آية : جنتان عن يمين وشمال ، كلوا من رزق ربكم واشكروا له ، بلدة طيبة ورب غفور • فأعرضوا ، فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط واثل وشيء من سدر قليل ، ذلك جزيناهم بما كفروا ، وهل نجازي الا الكفور ، وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة ، وقدرنا فيها

السبيل، سيروا فيها ليالي واياما آمنين ، فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا ، وظلموا أنفسهم ، فجعلناهم احاديث ، ومزقناهم كل ممزق ، ان في ذلك لآيات لكل صبار شكور » .

كذلك ادال الله من دول بلغت اوج المجد ، ثم فسدت طوية أهلها فتظالموا وتقاطعوا وتقاسموا على أنفسهم كالقياصرة والاكاسرة الذين محا الله ملكهم ، وخلص العالم من طغيانهم ، اذ ارسل عليهم جنود عدله لواء الاسلام ، فأورثهم ارضهم وديارهم واموالهم ، وكانت عدالة الاسلام خير وسيلة لفض جموعهم وفتح حصونهم ، وخير ملجأ ينضوي اليه المظلومون من عامتهم وخاصتهم ، والظلم مرتعه وبيل وخيم لا يبقي ولا يذر . كانت العدالة اساس التعاليم المحمدية السامية ، وربناط مجتمعها الوثيق ، يقوم فيه الرسول الكريم باعظم واسمى قدوة عرفت لمعلم اخلاق على مر القرون .

كان يعدل بين الاسود والابيض والاحمر والاصفر « لا فضل لعربي على عجمي الا بالتقوى » رسالة تضمن الحق لكل من تثبت له صفة الانسانية . لا تفاخر ولا تطاول ولا تعاظم الا بالعمل الصالح المتواضع والخلق السامي الركين ، سماحة وصبر وعفو ومياسرة وهدى وارشاد لا ظلم ولا انتقام ولا طغيان .

وكان خليفته الاول أبو بكر رضى الله عنه الناسج على منواله ، والسائر على هديه ، والذي يرى القوي ضعيفا حتى يأخذ الحق منه ، والضعيف قويا حتى يأخذ الحق له ، والذي يرى نفسه مسئولا حتى عن عدوان ذئب على شاة لاحد الرعية ، ولو كان باقصى مملكة الاسلام الواسعة . وهل بعد هذا دقة في الشعور بالمسئولية واستشعار العدالة ؟.

أما عمر بن الخطاب عليه رضوان ربه ، فكان ابعد الخلفاء في ذلك

غورا واخلدهم سيرة • إن صحائف تأريخه الناصع تروي لنا انه ما كان يسمح لنفسه يوما ان تستشعر لها ميزة على احد من رعاياه • كان يسمع اللوم والتقريع عن كل من ينقده نقدا عادلا لا فرق بين رجل وامرأة ولا بين حر وعبد ، ولا بين كبير وصغير •

وحسبنا عدالة بحاكم كان يسهر الليل جواب آفاق ، والناس نيام ، ليستوضح احوال الرعية ، ويلمس بنفسه من وراء الحوائط آلام البائسين ، ويقف على خلات المعوزين ، غير منتظر منهم ولا من اعوانه ايصالها اليه في مجلس عدله •

لان من الناس من يقنع بؤسه ، ويستر جرحه النزاف تصونا وضنا بالكرامة ، ومن الاعوان مهما اخلصوا من لا يشعر بمثل ما يشعر هو به من عظم الوزر وجلال المسئولية ، فمن ذا الذي يستطيع ان يميط له اللثام عن كل شاردة وواردة من آلام رعيته ، الا ان تكون نفسه الحساسة بمواضع الآلام ؟ ولرب بؤس في الحياة مقنع أربى على بؤس بغير قناع •• وبهذا كان اكثر من أب حدب على أبناء يعدون بالملايين •

ومن ابدع ما يروى عن عدله الدقيق : ان بعض رعاياه ، كانوا ينزلون بداره ضيوفا ، فيصيبون من طعامه الذي يقدم له ما يجعلهم يأسفون على حظهم ، لفوات ما كانوا يقدرون انهم سينالونه على مائدة خليفة واسع السلطان من الطيبات •

ولكنهم لو علموا ان رجل العدالة رجل قلب لا رجل بطن ، وان له من لذة الايمان بالعدل ما تتفه معه اطايب المطاعم والمشارب ، وجميع لذات الدنيا ، لما عجبوا ولا دهشوا •

ولقد كان اقرب خطم الرعية من يده القوية خطام اهله وعشيرته

الادنين ، يتخذ منهم هدفا لمرمى العدالة ، يراه الناس ، فيأتسون ويؤمنون ويعملون ويخلصون .

وآية ثقة بعد الثقة بحاكم يقدم عند الشدائد نفسه واهله ، ويقدم عند المغانم سواهم . ليتيم حجة العدالة ناصعة سافرة كالشمس الطلقة رأد الضحى ؟ ومن يرد عجائب عدله فليرجع الى صفحات التاريخ فانها عجب الدهر .

ومن بديع مأثور التاريخ في هذا المعنى ما روي من أن عمر بن عبد العزيز الخليفة الاموي العادل ، كان يقتر على نفسه حتى لا يمس درهما من مال الدولة بغير حقه وراق له يوما أن يستخبر خادمه بعض ما لا يعلم من أموال الرعية فقال له : « ماذا يقول الناس فينا بعد أن صار هذا الامر الينا ؟ » فأجابه الخادم في حدة وغيظ : « وماذا يقولون ؟ والله لقد كنا قبل هذه الخلافة اسعد حالا منا بعدها » .

وهنا بدا للخليفة الصالح ان خادمه يكابد من العيش مالا قبل له بمثله ، فأحسن اليه وسرحه سراحا جميلا ، وقال له : « أنت حر مطلق وسأبقى أنا فيها حتى يكتب لي الله عنها مصرفا » . وقد بقي فيها ما شاء الله ان يبقى دون ان يحيد عن سبيله القويم ، حتى وافاه اجله رضي الله عنه وأرضاه .

ومن الطرائف في تحري العدل ما روي : أن المأمون الخليفة العباسي كان يوما يماشي قاضيه على طريق في بستانه ، وكان القاضي يستره عن الشمس بظله ، فلما ارادا الرجوع ، حاول القاضي ان يظل ناحية الشمس ليبقى ستارا له ، فأبى المأمون الا ان يكون ستارا للقاضي واحدة بواحدة . فقال له القاضي : « يا أمير المؤمنين لو استطعت ان

أقيك بنفسي من حر النار لفعلت » فقال المأمون رحمه الله : « نعم ولكن ليس ذلك من كرم الصحبة » .

وبعد ، فهل يحسن بعاقل يحترم نفسه وانسانيته ان يجهل قيمة العدالة ، وما لها من آثار صالحة في سعادة الافراد والمجتمعات ؟ .

العدالة فضيلة أساسية تقتضيها جميع المعاملات الاجتماعية ، تقتضيها علاقة المرء بأهله ، وعلاقة الجار بجاره ، والقريب بذوي قرابته ، والرئيس بمرؤوسيه ، والحاكم بمحكوميه ، وكل مواطن مع مواطنيه ، حتى يكون السبيل اهدى والطريق اقوم . نسأله تعالى الهداية .

— ٣ —

والآن وقد عرضنا تلك الفضيلة « فضيلة العدالة » عرضا فلسفيا تاريخيا على قدر ما سمح لنا به الزمان والمكان ، نستعينه تعالى في معالجة الناحية العلمية لهذه الفضيلة ، لان معالجة النواحي النظرية والتاريخية المحضة لا يؤتي من الثمرات كل ما يطمح اليه المصلح الاخلاقي. وان عناصر هذا البحث لتستدعي ، بديا ، ايضاح الاسباب والعوامل النفسية ، والطبيعية ، والاجتماعية ، التي تنحرف بالافراد والجماعات عن سنن العدل ، وتحملهم على مركب الجور والبغي ، وتلبسهم من رذيلة الظلم لبوسا ما كان احراهم بأن يلبسوا بدلا منه لبوس العفة والعدالة ، لتظهر انسانيتهم في ابهى مجاليها واسمى معانيها . كما انها تستدعي ، بعد ذلك متابعة البحث عن افضل طرق العلاج الاخلاقي ، وعن انجح الادوية والمطهرات النفسية التي يرجى منها برء النفوس الانسانية من ادران تلك الرذيلة الخبيثة القاتلة .

ونعني هنا بالاسباب والعوامل النفسية تلك الظواهر الفطرية ،

التي يدلنا البحث الدقيق على أنها بعض طبيعة الانسان ومنذ سوي انسانا، ومن قبل ان تلجئه طبيعة البيئة او عدوى المجتمع الى مقارفة الظلم والعدوان ، كما نعني بالاسباب الطبيعية تلك الضرورات المادية التي يلجأ بسببها الكائن الانساني الى العدوان دفاعا عن النفس ، مضطرا الى ظلم سواه في سبيل العيش او قتل نفسه جوعا وحرمانا اذا كف عن ذلك العدوان . اما الاسباب والعوامل الاجتماعية فنعني بها تلك النزوات التي تدفع الانسان الى العدوان ، متأثرا بروح الجماعة التي يعيش فيها ، ولاجل تحقيق مطامح لا تقضيها ضرورة الحياة ، وانما هي ضرب من الاشر والبطر والتجني وحب الغلب والسيادة والظهور بمظاهر البطولة ، يقلد الصغير فيها الكبير ، ويتبع اللاحق فيها السابق .

وبالرجوع الى مظاهر التطور الانساني في التاريخ ، نجد ان النوع الاول وهو العوامل النفسية هو اقدم الاسباب والعوامل جميعا في الطبيعة الانسانية ، بل لقد ذهبت بعض الديانات ، واشتط منها بعض الفلاسفة المتشائمين ، الى ان العدوان والبغي هو الطبيعة الانسانية كلها، ولذا اوجبت الرحمة ان تكون نهاية هذا البدن المدنس ان يحرق بالنار بعد الموت تطهيرا له ، اذ لا سبيل الى تطهيره مادام ينبض فيه بالحياة عرق . ويقول بعض الفلاسفة المتشائمين :

خست يا أمنا الدنيا فأف لنا

بنو الخسيسة أوباش أخساء

ويقول :

اذا بكر جنى فتوق عمرا

فان كليهما لاب وأم

اما الحكيم الشاعر المتنبي فيقـول :

والظلم من شيم النفوس فان تجد
ذا عفـة فلعلـه لا يظلـم

ولعل هذه الحكمة ، على ما يتوثب فيها من ثورة نفسية ، لم تبعد عن الحقيقة كثيرا •

ان الظلم بلا مراء ، هو بعض شيم النفس الانسانية ، وكم فيها من عجائب وغرائب ! كم فيها من خير وكم فيها من شر ، وانما الموجع في حكمة المتنبي أنه يضع الظلم في الكفة الراجحة ، لان اية فضيلة تقابله لن تستطيع الرجحان الا ومعها علة تتيح في الطبيعة الانسانية مفخراء

وعندي انه مهمايكن في تلكالفضائل التي تقابل الظلم من مفاخر،ومهما كان عللها تعد خيرا اذا ما قورنت برذيلة الظلم نفسها على بشاعتها وقبحهاء

وهذه العوامل النفسية التي تمد رذيلة الظلم في الطبيعة الانسانية تتنوع وتتشكل ، فبعضها يرجع الى الغرائز نفسها حين تتحرك في الانسان ، كما تتحرك في الذئب والقرد والنمر ثم لا تجد بازائها من الحصانة العقلية والحكمة ما يرد على ميولها السافلة ، ويكسر من شرتها ويلطف من حدتها • والنتيجة العملية لتلك الميول اما ان تكون على النفس او على العرض او على المال او على السمعة التي يمتاز بها ذو المواهب والفضائل ، أو على مواهبهم نفسها •

ولسنا نبالغ اذا قلنا ان جميع الناس ، خلا المعصومين منهم ، عرضة لمقارنة هذه الرذيلة ، خطأ نادرا في الاخيار ، وطبعا وعادة في الاشرار •

وبهذه الدوافع النفسية كانت اول مأساة من الظلم اذ ازهق فيها قابيل نفس اخيه هابيل ، غيرة وحسدا دون ذنب او جريرة تستاهل ذلك

العـدوان « واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق اذ قربا قربانا ، فتقبل مـن احدهما ولم يتقبل من الآخـر قال لاقتلنك قـال انما يتقبل اللـه مـن المتقين ، لئن بسطت الى يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي اليـك لاقتلك اني اخاف الله رب العالمين .. » الآيات الكريمة من سورة المائدة .

وقد يكون من تلك العوامل النفسية حالات مرضية طاغية ، يزيدها غرور المنصب والسلطة هوسا الى هوس . ومن ذلك ما يروى عن الظالم الشهير الامبراطور نيرون الحاكم الروماني في النصف الثاني من القرن الاول الميلادي : أنه اضرم النار في مدينة روما ثم جلس على مرتفع يطل منه على المدينة ، منتشيا بسنظر اللهب ، يدمر كل شيء تدميرا علـى حين كانت انغام الموسيقى تصدح في مجلسه لتزيده جنونا على جنون .

وسواء أصحت الرواية في هذا أم كانت مبالغة في تهويل ظلم ذلك الطاغية ، فانها صورة من صور الطغيان جديرة بأن تضـرب مثلا لذلـك النوع المرضي الجنوني . على انها مع ما فيها من بشـاعة ليست امـرا مستحيلا ولا مستبعدا . وقد اسلفنا في مقال قبل هذا ما كان من امـر فرعون موسى اذ قال : « يا هامان ابن لي صرحا لعلي ابلـغ الاسباب ، أسباب السموات فاطلع الى اله موسى واني لاظنه كاذبا ... » وفي هذا ما يمـكن ان يضرب مثلا للهوس وجنون القوة .

اما عن اسباب هذا المرض النفسي نفسها فأمر يجدر بنا ان نتـرك التعمق في تحليله لاساطين علم النفس . ومع ذلك فان الملاحظة التاريخية تشعرنا بأن منها ما هو خلل في الفطرة نفسها ، كما مر مثاله في نيـرون وفرعون . ومنها ما هو من قبيل « مركب النقص » الذي تبدو اعـراضه على كثيرين من الذين يمتون الى بيئات وضعية ثم يضلون عـن طريق

الوصولية ، او سواها ، الى الرياسة والنفوذ •

ولسنا نبالغ اذا قلنا : ان اكثر الصوالين بالظلم هم نبـــت هده البيئات ، ولسنا نعني هنا البيئات الفقيرة ، كما قد يظن ، فــكم ينبت منهـــا احيانا من عظماء وفضلاء حقيقيين ، انما نعني تلك البيئات المنحلة المسرفة التي لا تعرف قانونا للحياة يلتزم ، ولا دستورا للادب يحتذى ، والتي تتردى دائما بعماياتها في مهاوى الهون • ان نبات هاتيك الاسر لن يــكون ، في غالب الاحيان الا حسكا وزقوما وعوسجا شائكا كذلــك الذي يقول فيه الشاعر :

عذرنا النخل في ابداء شوك — يرد بــه الانامل عــن جنــاه
فما للعوسج الملعون ابــدى — لنـــا شوكـــا بلا ثمر جنــاه

والحق أن الشوك والشواكة سلاح مشروع في سبيل الدفاع عن العدالة والصالح العام ، اما شوكة الظالمين واشواكهم فليســت اكثر من اذى للانسانية ليس وراءه من ثمر • واذ قد بان لنا ان الظلم في صــورته النفسية ، يرجع في الاكثر الى سببين هما الخلل في الفطرة ، وسوء المنبت الذي يظهر اثره في صورة « مركب النقص » يحس بنا ان نشير الى ان « مركب النقص » قد يــكون مرده احيانا الى عيب خلقي « بـــكسر الخاء » كأن يشعر الحاكم الظالم انه منقوص الحظ مــن هذه الناحيــة ، لانه ضئيل نحيل او ذو عاهة منفرة ، او بشع الصورة او ما الى ذلــك من أسباب يساعدها جهله ان هذه العيوب الجسمانية غير جديرة بأن يؤبــه لها فيصور له خياله السقيم ان لا مفر له من تعويض هذا النقص باظهــار التجبر والعسف ، لينال الاحترام قسرا بعد ان فاته طواعية • ولــو كــان له من العلم ما يشعره ، أن فضيلة العدالة هي اسمى من كل جمال جسماني

في هذه الدنيا ، لاختار لبوسها وتزين بها فكان من الموفقين .

وتدلنا التجارب على ان « الخلل في الفطرة » داء عسير العـــلاج لانه الحماقة التي بقي من يداويها . أما « مركب النقص » فلا علاج له الا ان ينتبه الرؤساء الى ملاحظة مرؤوسيهم ، ويتبعوا سلوكهم وسيرتهم فـي الناس ، ويرشدوهم الى ما هو الافوم من السلوك مع ابناء مجتمعهم ، وان يعلموهم بالقدوة في انفسهم وانما هم مواطنوهم وسبب نعمتهم ، وانهـم بدون ابناء مجتمعهم لن يكونوا شيئا مذكورا . ومن يرجع الـى تاريخ الخليفة العادل عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، يتعلم من فضيلة العدالة ما يغني عن دراسته اسفارا كاملة . وحبذا العمل الطيب لو تنبه وعاظنا الـى هذا السبيل ، وشغلوا انفسهم به ودلفوا الى كل من ينحـرف عن جـادة العدالة من عمال الدولة ، واخذوه بالنصائح الملطفة ومدح التواضـع ، وشرح مزية العدل وفوائده للحاكم والمحكوم على السواء ، وقديما ايام العصور المظلمة كان الوعاظ يتحايلون لوعظ الظالمين بوضع حـكايات تعنيهم ، على ألسنة الحيوان ، لتقرع اسماعهم فـي لطف وتلج الـى قلوبهم في رفق . فهل يعز على وعاظ زماننا ، وهو عصر النور ، والحرية، والصراحة ان يشنوا حربا سلمية حكمية على هذه الرذيلة الشنعـاء ، ليغسلوا من اوضارها قلوب مرضاها ؟ .

اما الاسباب والعوامل الطبيعية ، والاجتماعية لرذيلة الظلم ، فنوعان يتداخـلان ويتشابـكان لان قسوة البيئة واجدابهـا مؤثرات ماديـة تدفع بطبيعتها الانسان الى العدوان ، دفاعا عن الحياة ، كما شوهـد ذلك في الجاهلية العربية ، وشعوب الجرمان قديما ، والجزائر البريطانية قبل ان تعزو وتفتتح وتستخدم اساطيلها في السيطرة على الاقطار والامـم المختلفة .

بدأت تلك الامم وامثالها الحياة في بيئات فقيرة ، تدفع ابناءها الى

العدوان ، فقتلوا وسلبوا ونهبوا حتى تعودوا القتل والسلب والنهب ، ولكن بعض هاتيك الامم تقدمت في مدارج الحضارة والعمران خطوات ، بل مسافات شاسعة ، واصبح مكانها مرموقا بالاعظام ، لما هي عليه من العلم والحضارة والنظام • بيد أن عوامل اخرى للظلم والعدوان ،قد نشأت بنشأة تطورها الاجتماعي وترقت معه كما ترقى • فاصبحت تلك الامم تنظم ذلك العدوان على الامم ، وتلبسه اسماء مخترعة فتسميه « ترقيه الامم المتأخرة » ، « حرية الاقليات » او « مواقع استراتيجية » ، الى غير ذلك مما عرفه العالم ، حتى اصبح نغمة ممجوجة وحديثا معادا ، وما هو في الحقيقة الا ان هذه الامم مع ترقيها تعودت مستوى اجتماعيا من الحياة يقتضيها السيطرة على كل موارد العالم لو استطاعت الى ذلك سبيلا •

ودعوى القوي كدعوى السباع

من الظفر والناب برهانها

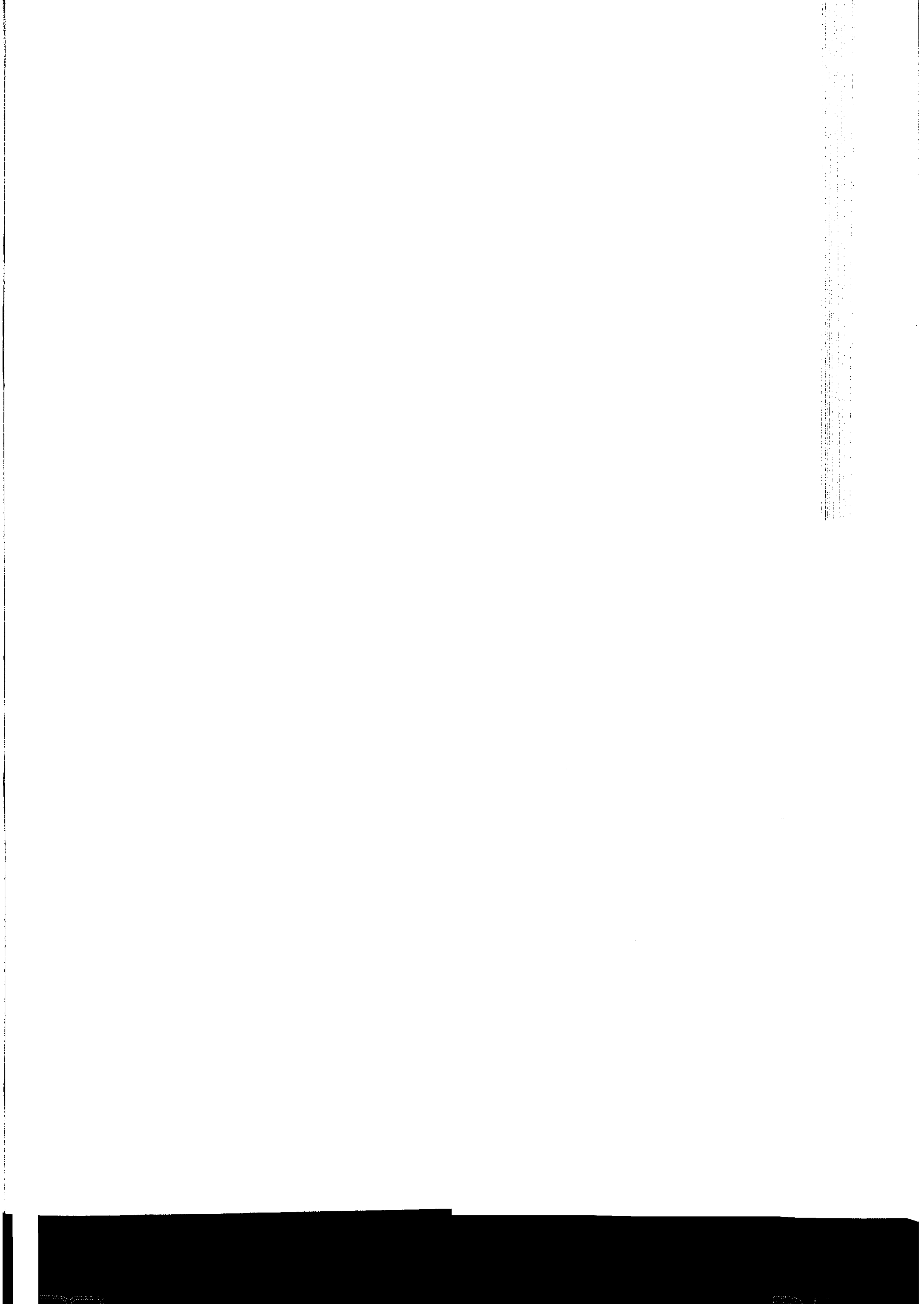
ولو ذهبنا لفحص تلك الدعاوى وتلك البراهين لدخلنا في طريق لا ينتهي •

وحسبنا هنا ان ندعو تلك الامم بدعوة الانسانية لكي تثوب الى رشدها وتؤثر العدالة ، وتبذل جهدها في مساعدة الامم الاخرى حقا وصدقا ، والا فانها ستظل عادية معادية عليها ، قاتلة مقتولة ، لا تنتهي من حرب الا لتدخل اخرى ، ولا تظفر بنصر الا وقد اشترته باغلى من ثمنه اضعافا مضاعفة • وعسى ان تفيق الانسانية من سكرتها ، وتحل العدل محل العدوان ، فان في ذلك اول دعامة من دعامات السلام والامن والسعادة •

وان في تعاليم الاسلام السمحاء لدعوة حارة لهذه العدالة البيضاء • كما انها من دواعي الفخر بحمده تعالى ان موقف امتنا المصرية من هذا المعترك العالمي يعد بحق من مفاخر الانسانية •

عبّاس طه

فلسفة الأخلاق



ليس بين ما يفتقر اليه الأنسان في توثيق صلاته بالخالق اولا ثم بالمخلوق ثانيا ، وفي تعرف طرفي الوجود وتلمس اعلى مراتبه مقرونا بمظهره الصادق جهد الطاقة ، وفي بلوغه منازل المخلصين الداعين الى الله والدالين به عليه ، ما له اوثق اتصال بالنفوس من صناعة الاخلاق •

والاخلاق كما يقول علماء النفس : حلقة الاتصال بين الانسان ووجوده في كل صورة من صور حياته • ولم تكن تلك الصناعة منذ عهد الخليقة بالتكاليف ، ومنذ تناجت المعقول بالحقائق ، الا حفاظا وثيقا للنفوس ان تعصف بها اعاصير الشهوات ، وحجابا صفيقا للغرائز الطيبة ان تستغويها اعراض المرئيات بما يلابسها من غاشيات الطبيعة •

والاخلاق في كل ما تصدر عنه تستمد وجودها وقوتها من العادة اولا ، ثم من المزاج ثانيا ، ثم من ترويض النفوس وتدريبها على سلوك الطريق السوي ثالثا •

وعلى مقدار مسايرة الاخلاق للعادات والامزجة ووسائل التهذيب تكون قيمة الافعال الصادرة عن الانسان • ووسائل التهذيب هي المناط في واقع امرها لاسعاد النفوس وتركيز الاخلاق الفاضلة •

اما الامزجة والعادات التي تصدر عنها الافعال في احدى حالتيها فهي خاضعة لناموس بقاء الاصلح • وهذا الناموس قد ثبت انه ساد الانظمة الوضعية جميعا • لكن ليس على طريقة النشوء والارتقاء ، بل على معنى ان العقول والنفوس الناطقة مضطرة لان تأخذ بالاجدى عليها

من صور الحياة .

وهـذا مصداق قوله سبحانه : « فاما الزبد فيذهب جفاء ، واما ما ينفع الناس فيمكث في الارض » .

وقد تواضع علماء الاخلاق ، وخاصة المتقدمين منهم ، علـى ان النفس الناطقة من حيث ما يصدر عنها من الافعال مردها الى قوى ثلاث .

فأولى هذه القوى هي التي يـكون بها النظر في النتائج ، مرتبطـة بمقدماتها من حيث صحتها وفسادها . واستخـراج المجهـولات من المعلومات .

وثانيتها ــ القوة التي تصدر عنها الثورة الغضبية او الحمية والنجدة ، والكلف بالظفر والغلبة والاحتياط بصنوف الكرامـة للاسر والعشائـر والجماعات والافراد ، والامعان بـكل الوسائل الممـكنة في حـب التسلط والقهر والاذعان لشهوة الانتقام .

وثالثتها ــ القوة التي بها اثارة الشهوة في صنوفها المتنوعة في المآكل والمشارب وما اليهـا من الوان استمتاع الجوارح .

ويجب ان تبقى هـذه القوى الثلاث متكافئة لتبقى متعادلة،والالزم من عدم تكافئها طغيان بعضها على بعض . على ان جمهـرة من علماء النفس عقبوا على تلك النظرية الاخيرة بما يتفق مع قاعدة (تنازع البقاء) حتى في الامور المعنوية .

ومما لا سبيل الى انكاره ان لقوام الاخلاق وملاكها في مجموعها قوى ثلاثا ، هذه القوى في حقيقتها نسبية ، فتكون مقولة بالتشكيـك قوة وضعفا وقلة وكثرة بالقياس الى ما ترجع اليه هذه القوى الثلاث من المزاج والعادة والتهذيب ، على ما ذهب اليه الكثيرون من علمـاء النفس الاقدمين .

هذه القوة ذات آلات ثلاث يختلف بعضهـا عـن بعض اختلافـا قويا ، نظرا لما يترتب على كل واحدة منها من الآثار • فمثلا نرى الدماغ والقلب والكبد فـي مجموعتهـا الآلية ، ادوات مبـاشرة لتلـك القوى الثلاث التي هي عماد الاخلاق وملاكها وعدتها وذخرها •

فالقوة الغضبية او السبعية لها من البدن ، جند يطيعهـا ويستجيب دعاءها ، وهي الجوارح • وللقوة الناطقة اداة تعينها على تحقيق مرادها ، ويعبرون عنها بالقوة الملكية ، تلك الاداة من الجسم ، هي الدماغ • كذلك للقوة الشهوية او البهيمية آلة تدير شئونها وهي الـكبد •

وغني عن البيان ان عدد الفضائل ينبغي ان يـكون بحسب اعداد هـذه القوى وتأثرها بها ، فمتى كانت حركة النفس الناطقة في سيرهـا معتدلة رشيدة شيقة الى تعرف النظريات الصحيحة من اشكالها المنتجـة ترود الامور بوسائلها وتأخذ الاشياء بأسبابها ، نشأت عنها فضيلة العلـم وتلزمها ايضا فضيلة الحكمة •

ومتى كانت حركة النفس الشهوية معتدلة في سيرها منقادة ، الى تدابير النفس العاقلة غير متعاصية عليها ، ولا ممعنة في الاصغاء لهواهـا ، نشأت عنهـا فضيلة العفة ، وتلزمها فضيلة السخاء •

واذا كانت حركة النفس السبعية معتدلة مستقيمة لداعية النفـس العاقلة ، فلا تتبرم ، لا تتسخط ولا تشكو ولا تهيج في غير حينهـا ، ولا تحمى اكثر مما ينبغي لها ، نشأت عنها فضيلة الحلم ، وتلزمها فضيلة الشجاعة •

ولهـذه الفضائل الثلاث اللازمة عن تلك الفضائل التي نشأت عن القوى الثلاث فضيلة هي فضلى الفضائل ، ومرمى كل نابل ، وهي المثل

الاعلى للانسان الكامل ، واعني بها فضيلة العدالة .

لذلك لم يبد عجبا ان يطبق الحكماء على ان الفضائل اربع ، وهي الاجناس العالية لما عداها من الفضائل ، وقد اكثر الاخلاقيون من الاشادة بخصائص هذه الاجناس الاربعة ، وما ينطوي تحتها من الانواع ، ثم سطوا السنتهم بحثا واستقصاء في تعرف انواع هذه الاجناس وامتدادها، وامراض النفوس وعلاجاتها ، حتى قال صاحب كتاب (الذريعة في مكارم الشريعة) :

ان النفس اذا استعصى عليها ان تجمع بين هذه الفضائل كان خليقا بصاحبها ان يكون كالشجرة الجرداء ، تعترض الناس في غدواتهم وروحاتهم ، فلا هم يستمرئون ثمارها ، ولا هم يتفيؤون وارف ظللها .

وفي الحق ان تلك الاجناس العالية هي مميزات الانسان الكامل ، كما هو حال الانبياء والرسل . ثم من بعدهم خلفاؤهم من العلماء المخلصين والهداة المرشدين . ولعل هذا مصداق قول الرسول : « تخلقوا بخلق الله » . فمن التخلق باخلاق الله ، العمل بمحاب الله ومراضيه في الحياتين العاجلة والاجلة .

ومن هذه الناحية قالوا في تعريف الحكمة : انها فضيلة النفس الناطقة المميزة ، وهي ان تعلم الموجودات كلها من حيث هي موجودة ، وان تعلم الامور اللاهوتية والناسونية ، وان تميز بعض المعقولات عن البعض الآخر : ايها يجب ان يفعل ، وايها يجب ان يهمل .

كذلك قالوا في تعريف العفة ، انها فضيلة في الحس الشهواني . واظهر مظاهر هذه الفضيلة في الانسان ، ان يستطيع بها الفل من

غرب شهواته ، او ان يصرفها على الاقل تصريفا مقترنا بالرأي الذي يصيب غالبا حتى يـكون طليقا من اسر الشهوات غير متعبد لسلطانها ، والا كان كما قال قائلهم :

رب مستور سبته شهـوة	مذ عرى مـن ستره وانهتكا
صاحب الشهوة عبـد فاذا	ملك الشهوة اضحى ملكـا

واذا فيـكون الحـد الناقص للشجاعة انها فضيلة النفس السبعية. واظهر مظاهرها في الانسان ايضا انقيادها للنفس العاقلة ، على معنـى ان تلقى تلك الفضيلة في نفسه حسن تصريف الامور في عزم وحزم ، وان يستبسل في جسام الخطوب في الليالي الحوالك في رأي يـكون اقرب الى الصـواب منه الى الخطأ ، مع البصر بحسن العاقبة وخير المنقلب ، واذا تـكون العدالة مجتمعة الى تلك الفضائل رابعة الاربع . الخلـق ـ خير الحدود واحسنها ضبطا وادناها استقصاء . انه حال للنفس داعية لها الى افعالها من غير فكر ولا روية . وهذه الحال تشتمل ثلاثة اقسـام ، خلافا لما ذهب اليه صاحب التهذيب (الامام احمد بن مسكويه) .

اولها ـ ما هو طبيعي راجع الى الحالـة التكوينيـة للمـزاج العصبي ، كالانسـان الذي يحركه ادنى شيء نحو غضب ، ويهيجه اقل سبب . وكالانسان الذي يتأثر من أيسر شيء ، كالذي يفزع مـن ادنى صوت يطرق سمعه او يرتاع من خبر يسمعه ، وكالذي يضحك ضحـكا مفرطا من ادنى شيء يعجبه ، وكالذي يغتمّ ويحزن من ايسر شيء يبدو له .

وثانيها ـ ما يـكون مستفادا بالعادة والتدريب ، وربما كان مبدؤه بالرؤية والفـكر ، ثم يستمر عليه اولا فاولا حتى يصير ملكة وخلقا .

وثالثها ـ ما يكون بتلقين الملقن وارشاد المرشد عن تبصر وحسن روية • وهذا هو الفوز الاكبر في رأي جمهرة الاخلاقيين ، لان اصلاح النفوس وتقويمها بحاجة ابدا الى الارشاد ، حتى تبقى وظيفة الكتب السماوية جليلة الاثر ، جمة العبر • وحتى تظل المواعظ الحسنة والحكم البالغة باقية على وجه الزمن •

اما اختلاف الاقدمين في تعريف الخلق ، وذهاب طائفة من اهل التصوف الى بعض الآراء التي تفردوا بها والمقارنة بينها وبين الآراء الحديثة والتعقيب على الضعيف منها •

اصول الاخلاق ـ تواضع علماء الاخلاق الاقدمون على ان اصول الاخلاق كلها اربعة وهي : الحكمة والعفة والشجاعة والعدالة ، اذا احكم تدبيرها وروعيت شروطها ، ظفر الانسان في ادوار وجوده من الحياتين بالفوز الاكبر •

وقد اطبق علماء الاخلاق وعلماء النفس على ان كل اصل من تلك الاصول الاربعة ، تنضوي تحته جزئيات متولدة عنه ، هي في واقع امرها ملاك المجتمع وعماده وهي اساسه وعتاده •

فالحكمة مثلا ينضوي تحتها الذكاء والتعقل ، وصفاء الذهن وسرعة الفهم وقوته والذكر وسهولة التعليم •

والحكمة هي العلم بالموجودات من حيث هي موجودة • وبالتالي العلم بالامور اللاهوتية ، ليكمل العلم بالحياتين : المعاش والمعاد •

ومتى كان العلم برهانيا فلا سبيل الى الشك في ان ما يصدر عنه برهاني كذلك • فالذكاء وهو احدى المنضويات تحت ما صدق الحكمة ،

هو سرعة انقداح النتائج وسهولتها على النفس ، بحيث تكون مقدمات تلك النتائج متصلة بالقضايا الصحيحة حملية كانت او شرطية •

والتعقل هو موافقة بحث النفس عن الاشياء الموضوعة بقدر ما هي عليه • وصفاء الذهن هو استعداد النفس لاستخراج المطلوب ليكون سبيل الاستنتاج مستبينا •

وجودة الذهن او قوته وحدته هي تأمل النفس لما قد لزم عن المقدم، بحيث ان وظيفة النفس تكون قائمة على تعرف قوة ما بين التالي والمقدم من اللزوم •

وسهولة التعلم هي حدة في الفهم وصفاء في النفس بها تدرك الامور النظرية • ثم يأتي دور الكلام عن المنضويات من الفضائل تحت فضيلة العفة ، التي هي اصلها ومصدر وجودها •

فهي الحياة والدعة والصبر والسخاء والحرية والقناعة والدماثة والانتظام وحسن الهدى والمسالمة والوقار والورع •

فالحياء هو انحصار النفس او وقوفها عند حد معين مخافة اتيان القبائح حذار الذم والوقوع في الناس على وجه يطابق الواقع •

والدعة هي سكون النفس عند حركة الشهوة المذلة ، فاذا ما ثارت في النفس شهوة الانتقام او التسلط او الغلبة والظفر للجاه او للمال او للنفس ثورة تجاوز بصاحبها نقطة الهدف وحد الاعتدال ، كان من الدعة الفل من غرب تلك النفوس الجامحة ، وان تقتل تلك الشهوة الثائرة في انواعها المترامية في اطرافها •

فالدعة اخص من العدالة وهي نوع من الورع الذي يحبو به

الله كثيرا من خلقه ، فهي لا تنفك عن الصبر على الكرائه والمفزعـات • وهي نـوع من انواع الرضا بالقضاء والقدر •

والسخاء هو التوسط في الاعطاء ، وهو ان ينفق المال فيما ينبغي على مقـدار ما ينبغي •

والحريـة هي فضيلة للنفس بها يـكتسب المال من وجهه ويعطى في وجهه ، وتمنع من اكتسابه من غير وجهه •

والقناعة هي التساهل في المآكل والمشارب والزينة •

وليست الاخلاق في حقيقة صورها المختلفة شيئا آخر غير جمـاع الخير وينبوع السعادات كلها • على ان كثيرا من علماء الاخلاق اختلفوا في تركز الخلق او تحوله احتلافا عظيما • فقال بعض الاقدمين منهم :

ان الخلق خاص بالنفس غير الناطقة على معنى انه غير قابل للتحول والانتقال ، والنفوس الناطقة من طبائعها ان تتحول وتنتقل بالقياس الى ما يعرض لها من تفاعل بما يقع تحت الحس والمشاهدات والعادات •

ويذهب فريق منهم الى ان شيئا من الاخلاق ليس طبيعيا للانسان ولا هو غير طبيعي له ، ذلك أنا مطبوعون على قبول الخلق ، فننقـل بالتأديب والمواعظ البالغة ، اما سريعا او بطيئا تبعا لقوة تفاعل النفـوس او ضعفها •

وان كان هذا الرأي الاخير هو المرتضى لجمهرة من الاخلاقييـن ، وجرى عليه ابن حزم في ملله ونحله ، ونحا نحوه الامام الغزالي ، وتابعه كثير من السلف ، واختاره (جالينوس) وحـكاه ابن مسـكويه عن ارسطـوطـاليس •

وحجة اصحاب هذا الرأي ما يقع لهم من مشاهدات مختلفة ، وما

يتفاعل به المجتمع من المشاهدات ، وما يحيط بها من تطورات مختلفة وشتى الملابسات • ولأن الرأي الاول من جهة اخرى ، يؤدي الى ابطال وظيفة التمييز في العقل ، ثم الى رفض السياسات كلها وترك الناس همجا مهملين ، ثم بالتالي ترك الاحداث والصبية والى ما يتفق ان يكونوا عليه دون سياسة ولا تعليم •

هذا فضلا عن انه ظاهر الشناعة والسخف جد الظهور ، فهو من جهة اخرى يلقى بهذا الوجود وما فيه من مظاهر وما يحيط به من بواعث، الى قذفات الصدف وفروض الاتفاق • ويحيل هذا المجتمع سوقا وضيعة من السلع ، تكون الغلبة فيه للقوي ، وتتحكم فيه انواع من السلطان الظالمة ، مأخوذة بدواع من الشهوات في سائر مناحي الانسان • وهذا هو المعول الهدام لبناء هذا المجتمع •

اما الرواقيون فيما ذهبوا اليه من شذوذ منقطع النظير ، واما جماعة من المشائيين وبعض آراء منسوبة ان صوابا او خطأ الى (جالينوس) واما ما ذهب اليه فريق من العندية وبعض فلاسفة الهند مما يتنافر مع النظريات السليمة التي تقوم عليها عمارة هذا الكون •

هذا غيض من فيض مما يتصل بالاخلاق التي يجب ان تكون في الانسان كأفضل مميزاته بل مقوماته ، وما يتألف منه قوام الاخلاق من انواع واقسام ، وبخاصة ذلك الطابع الذي يطبع النفس بطابعها الخاص ، ويروضها على افضل المثل العليا واعمقها اثرا في صميم هذا المجتمع •

وليس من شك في أن كل جسم من الاجسام له صورة تشخصه وتحدده فلا يقبل صورة اخرى من نوع ما تعين عليه من الصورة الاولى الا بعد مفارقته لها •

فمن المسلم به ان الجسم اذا قبل صورة من الصور كالتربيع او التثليث مثلا ، فلا يقبل شكلا آخر كالتدوير ، الا بعد ان يفارقه الشكل الاول ، كما انه اذا قبل صورة من النقوش او الكتابة او ما اليها ، فلا يتأتى ان يقبل صورة اخرى كذلك ٠

ولكن النفوس لا تجري هذه‌السنة ، فانها تقبل جميع الصور حتى المتناقضة منها ، ولا تمحو صورة اثر صورة اخرى ٠

وهذا دليل على انها من جوهر لطيف مباين لجوهر المادة ٠ وان طباع النفس وخلقها ، تباين طباع الجسم وخواصه ، وانها اكرم جوهرا وافضل طباعا من كل ما في العالم من‌الامور الجسمانية ٠

والنفس وان كانت تتلقى كثيرا من مبادىء العلوم عن الجسم، لها من طبيعتها مبادىء اخرى ، تلك هي المبادىء الشريفة ، والمطالب العالية التي لا تمت الى عالم الاجسام بأوهى سبب ٠ وهي المبادىء التي تستنبط منها الاقيسة الصحيحة ٠

فمثلا اذا حكمت النفس بان ليس بين النقيضين واسطة فليس ذلك مأخوذا عن الحس ٠ وكذلك اذا حكمت على الشيء بانه صادق او كاذب فلا يمكن ان يكون ذلك وحده مستفادا من الحس ، ولكنه مستفاد مما تجده النفس بالقياس الى المقدمات والنتائج ٠

ونحن نجد النفس العاقلة فينا تستدرك شيئا غير قليل من خطأ الحواس ، لانه لا يضاد نفسه فيما يحكم فيه من مبادىء افعالها وفيما ترد عليها احكامها ٠

فالبصر مثلا يجوز عليه ان يخطىء فيما يراه من قرب او من بعد، فاما خطؤه البعيد فقد يدرك الشمس مثلا صغيرة مقدارها عرض قدم

وهي في واقع امرها ، تماثل الارض مليونا وثلاثمائة مرة عند علماء الفلك بشهادة البرهان الرياضي •

واما خطؤه في القريب ، فمثاله ضوء الشمس اذا وقع علينا من كوة صغيرة او من مربعات صغار ، فانه يدرك بها الضوء الواصل الينا منها مستديرا ، فترد النفس العاقلة عليه ذلك الحكم وتغلطه في ادراكه ، وتعلم انه ليس كما يراه •

ويخطىء البصر ايضا في حركة السفينة والشاطىء والنجوم والكواكب • ويخطىء في الاشجار المتراصة وفي النخيل ، وفيما هو متجانس الابعاد حين يراها مختلفة في اوضاعها •

ويخطىء ايضا في الاشياء الغائصة في الماء حتى يرى بعضها اكبر من مقداره ، ويرى بعضها معوجا وهو مستقيم ، فيستخرج العقل اسباب هذه الاشياء كلها من مبادىء علمية،ويحكم عليها احكاما صحيحة• ويخطىء ايضا في الاشياء التي تتحرك على الاستدارة حتى يراها كالحلقة والطوق • وكذلك الحال في حاسة السمع وحاسة الذوق وحاسة الشم وحاسة اللمس ، فالعقل هنا يرد القضايا ويقف منها موقف المدافع الذائد عن بيضته ، ثم هو يستخرج اسبابها ويحكم فيها احكاما ظاهرة الصحة • والحاكم في الشيء المزيف له او المصحح افضل بكثير واعلى رتبة من المحكوم عليه •

وعلى الاطلاق فان النفس اذا علمت ان الحس صدق في تقديره او كذب ، فليست تأخذ هذا العلم من الحس قطعا ، ثم اذا علمت انها قد ادركت معقولاتها فليست تعلم هذا العلم من علم آخر ، ولكن من ذاتها ، لانها لو علمت هذا العلم من علم آخر لاحتاجت في ذلك العلم ايضا

الى علم آخر ، وهذا يمر بلا نهايــة ، وليست تحتاج في ادراكهــا ذاتها ، الى شيء آخر غير ذاتها • ولهذا قيل في اواخــر هذا العلم : ان العقــل والعاقل والمعقول شيء واحد •

واذ قد تبيــن من هذه الاشياء بيانــا واضحــا ان النفس ليست بجسم ولا بجزء من جسم ولا حال من احوال الجسم ، وانها شيء آخــر مفارق للجسم بجوهره واحكامه وخواصه وافعاله ، فلا بد من ان نعرض لشيء غير قليل مما تصبو اليه النفوس ويدخل في متناول عقليتها فيقول :

من المسلم به ان النفس شيقة الى معالجة الفضائل مــع نبوها عن الافعال الجسمانية العالقة بعالم الاجسام •

والفضائل لا يستطاع تحصيلها الا بعد ان تطهر نفوسنا من الرذائل التي هي اضدادها ، وهي شهواتها الرديئة الجسمانية ، ونزواتها الفاحشة البهيميــة •

فان الانسان الخير اذا علم ان هذه الاشياء ليست فضائل بل هــي رذائل ، تجنبها وكره ان يوصف بها • واذا ظن انها فضائل لزمها وصارت عــــادة •

وهكذا تصبو النفوس الخيرة الى كل معاني الخير ، وتنبو عن كل معاني الشر • مما يحتاج معه الى تبيان الاوضاع الناجمـــة عن ذلك ، والكشف عن عللها على ضوء آراء الاخلاقيين لتكوين الصورة الواضحة التي يركــن المرء اليهــا •

وهنا يتوجب علينــا ان نعرض ولو لماما الى شــوق النفس ومــا يصدر عنها من الافعال المميزة لها عن النفوس غير الناطقة ،فشوق النفس الى العلوم والمعارف فضيلة من فضائلها ،بل هي الفضيلــة العظمى التــي

اربت على كل فضيلة منذ قيام البشرية في الارض بعبء التكاليف .

وعلى مقدار طلب الانسان لهذه الفضيلة واستلهام الاصلح منها في شتى مناحيها والتغلب على العوائق التي تقطعه عنها ، يكون نجاحه فيها .

وبدهي ان الفضائل من حيث هي كذلك ، لا يستطاع تحصيلها الا بعد ان تخلص النفوس من الرذائل التي هي اضداد تلك الفضائل ونقائضها ، وهي شهواتها الثائرة الجسمانية ، ونزواتها الفاحشة البهيمية .

ذلك لان الغرض المقصود من وجود الانسان حين يتوجه اليه هو ما يجب ان يسمى الشخص به خيرا[3] او سعيدا . اما من عاقته العوائق وصرفته الصوارف عن بلوغ ما يحصله من مميزات الانسان الذي يحمل النفس الناطقة ، فهو الشرير او الشقي .

فالمميزات اذا ، هي التي تحصل للانسان بارادته وفعله واختياره وسعيه في الامور التي من اجلها وجد الانسان وقام بمهمة عمارة الكون وتحري افضل برامج الحياة .

وقد قسم الفلاسفة الاولون الاخلاق الى اقسام شتى ، فمنها ما هي شريفة ، ومنها ما هي ممدوحة ، ومنها ما هي بالقوة كذلك .

ومن الواضح ان لكل موجود من الموجودات كمالا خاصا وفعلا لا يشاركه فيه غيره من الموجودات . وهذا الحكم مستمر في الامور العلوية والسفلية ، كالشمس وسائر الكواكب ، وكأنواع الحيوانات والنبات والمعادن .

ولكن الانسان من بين سائر الموجودات له فعل خاص لا يشاركه

فيه غيره وهو ما صدر عن قوته المميزة العاقلة ، فكل من كان تمييزه اصح ورؤيته اصدق واختياره افضل ، كان اكمل في انسانيته وابلـغ فـــي معقوليته وافعل فيمـــا يترتب عليها من الآثار .

وكما ان السيف والمنشار مثلا ، وان صدر عن كل واحد منهما فعله الخاص وهو القطع بالقياس الى كل واحد منهمـــا منفردا عن صاحبه ، يختلفـــان في كيفية القطع وسرعته وبلوغ الغايـــة منه على اكمل وجوهها، فكذلك الانسان بالقياس الى مـــا دونه من بني جنسه .

وكذلك الشأن في الفرس والبازي وسائر الحيوانات ، فان افضل الافراس ما كان اسرع حركة وعدوا واشد نشاطا وتيقظا لما يريده الفارس منه من طاعة اللجام وحسن القبول في الحركات وخفة العدو والنشاط .

فكذلك الناس افضلهم من كان حريصا على افعاله الخاصة به واشد تمسكـــا بشرائط جوهره الذي تميز به عن الموجودات .

واذا يكون من الاحرى بكلذي مسكة منالعقل ان يحرص الحرص كله على الاستمساك باسباب الخير ومصادره ، وان يفر بدينـــه وعرضه وخلقه من اسباب الشر وبواعثه ليستكمل من الحياتين اوفر حظ واوفى نصيب . فان الحيوان كالفرس مثلا اذا بدا منه تقصير عن الحـــد الذي ينعت الفرسية وانحط عن الفضل المتمم لماهيته ، بحيث لم تظهـــر مميزاته اللاصقـــة به على اكملها واتم وجوهها ، انحدر الى مرتبة الحمر وكـــان خليقـــا ان يؤخذ بالاكاف ، وان يساق بالعصا كما تساق الحمر .

وكذلك حال السيف وسائر الآلات متى قصرت عن إداء ما يحفظ لها نعوتها ، انحطت عن مراتبها الى مـــا دونهـــا واستعملت استعمالا يتفـــق وما هبطت اليه من غير مستواها الموجهة اليه .

فالانسان اذا نقصت افعاله وقصر فيما خلق له وقامت في وجهه الصوارف لفعله الصادر عنه باختياره بحيث تكون افعاله الصادرة عن رويته غير بالغة حد الانسانية المهذبة العاقلة ، انحط الى مرتبة البهائم والتحق باصناف ليست من صنفه .

اما اذا صدرت عنه تلك الافعال مضادة لانواع الخير بحيث تكون مظاهر من الشر ومجموعة غير صالحة من الرذائل التي من شأنها ان تصرفه عما عرض له من تزكية نفسه وصقلها في قالب من الخير ينتهي به الى الملك الرفيع والجاه المنيع والسرور السرمدي والعيش الرضي ، وانخدع عن هذه الموهبة السرمدية الشريفة بتلك الحساسات الوقتية التي لا ثبات لها ، كان خليقا بالمقت من خالقه ، حقيقا بالرثاء له .

واذا تجلى للناظر ان سعادة كل انسان تكون بالقياس لما يصدر عنه من الافعال ، المميزة للانسان والتي هي جزء من مقوماته ، وان هذه السعادة المترتبة عما يصدر عنه من الافعال مراتب كثيرة بحسب الروية والمروّى فيه ، ولذلك قيل : افضل الروية ما كان في افضل مروّ .

ثم ينزل مرتبة فمرتبة الى ان ينتهي الى النظر في الامور الممكنة من العالم الحسي ، فيكون الناظر في هذه الاشياء قد استخدم رويته والصورة المميزة له ، التي بها صار سعيدا متأهلا للملك الابدي والنعيم السرمدي ، بالقياس الى اشياء دنيئة وامور تافهة ، لا ثبات لها ولا ظل لها من الحقيقة .

فقد تبين ان هناك اجناسا من السعادات على الجملة ،وان اجناسا من الشكاوات على الجملة ، تنحل هذه وتلك الى جزئيات بحسب ما يصدر

عـن الانسان من العوامل الموجبة والسالبة ، وبحسب ما تتفاعل به نفسه منساقة بعوامل الخير او بدوافع الشر ، وكل ميسر لما خلق لـه ، وان الخيرات والشرور في الافعال الارادية هي امـا باختيار الافضل والعمل بـه ، وامـا باختيار الادون والميل اليه .

ولما كانت هذه الخيرات الانسانية وملكاتها التي في النفس كثيـرة ولم يكـن في طاقة الانسان الواحد القيام بجميعهـا ، وجب ان يقـوم بجميعهـا جماعـة كثيرة منهم .

ولذلك وجب ان تكون اشخاص كثيرة وان يجتمعوا في زمان واحد على تحصيل هذه السعادات المشتركة لتكميل كل واحد منهم بمعاونـة الباقين لـه ، فتكـون الخيرات مشتركـة والسعادة معروضة بينهـم فيتوزعونهـا .

ولاجل ذلك وجب على الناس ان يحب بعضهم بعضا ، لان كل واحد يرى كماله عند الآخر ، ولولا ذلك لما تمت للفرد سعادته ، فيكـون اذا كل واحد بمنزلة عضو من اعضاء البدن، وقوام الانسان بتمام اعضاء بدنه .

يتضح من هذا ان هناك قسما غير قليل من الفروق المتفاوتة في بني الانسان ،وان النفوس تتفاضل بتفاضل البداءة واختلاف الثقافات ، والآن نريد ان نعرض للإنسان من حيث كونـه مصدر الخير او الشر ، وكيف يكـون اقلاعه عنهمـا بطيئا او سريعـا .

فالانسان بما اسبغ الله عليه من نعمة التفرد بجوهره عما يشاركـه فيهـا من العوالم الاخرى حتى صار ملكـا قائمـا على عالم الاجرام ، وخليفـة لله في ارضه ، يستجمع بيـن حواسه الظاهرة والباطنة ،ويدخر في قواه المفكرة وحركاته الارادية ، ما يدبر بـه تلك المملكـة ، ويتصرف

بمقتضاها تصرفا هو اجدى انواع التصرفات واروح لسائر الكائنات ، وابرز وجودا واطول خلودا •

من اجل ذلك ، يذهب الاخلاقيون الى ان كل ما يصدر عن الانسان من حيث كونه كذلك ، يجب ان يكون تاما في فعله ووصفه ، وهذا ضروري لان صناعة الاخلاق ، قائمة على تركيز الخلق في الانسان ، واحاطته بسياج صفيق،واتخاذ الفضائل الاربع التي اسلفنا للقارىء كثيرا من فيوضاتها ، حتى يقاوم الخير في النفوس بما ركز فيها من خلق عاديات الشر وغوائل الطبيعة • ومتى احكم ذلك السياج المنيع بتدبير من الروية والهام من الخير ، وجب ان يكون الانسان في مملكته اعلى المثل الطيبة في جميع ما يصدر عنه •

فاذا كانت جواهر الموجودات متفاوتة في الشرف ، نظرا لما يصدر عنها من آثار ضارة او نافعة ، كانت بالقياس الى ما تنزع اليه شريفة او وضيعة •

اما الانسان من بين هذه الموجودات ، فهو متحل بضروب من الاستعدادات لضروب من المقامات ، وليس ينبغي ان يكون الطمع في استصلاحه على مرتبة واحدة •

وان ما يجب ان يعلم قبل كل شيء ، هو ان وجود الجوهر الانساني متعلق بقدرة خالقه ومنشئه سبحانه وتعالى عن الشبيه والنظير •

غير ان تجديد ذلك الجوهر بوسائل قمع الشهوات واحلال اضدادها مكانها ، وتمحيض ذلك الجوهر للخير قدر الجهد ، حتى يصهر النفوس الشريرة من علائقها ، ويكبح فيها ملكة الجموح ، ويحيلها الى نوع من السعادات ، انما هو عمل الانسان ومتعلقات قدرته ، واثر من آثار

ارادتــــه .

ومما لا مرية فيه ان الاخلاقيين معنيون ابدا بتعرف ان نفوسنا ما هي ولاي شيء هي ، وان لكل جوهر موجود كمالا خاصا به وفعـلا لا يشاركه فيه غيره من حيث هو ذلك الشيء .

لذلك كنا نحن ايضامعنيين بمعرفة الكمال الخاص بالانسان ، والفعل الذي لا يشاركه فيه غيره من حيث هـو انسان ، لنحرص علـى طلبـه وتحصيله فنسعى بالبلوغ الى قمته .

ولما كان الانسان في حقيقة امره مركبا لا يتجزأ الا من حيث مـا يصدر عنه ، كان واجبا ان يكون مفهومـا صدور تلك البسائط فـي افعالـه الصادرة عنـه .

فافضل الناس هـو اقدرهم على اظهار فعله الخـاص والزمهم لـه وادومهم عليه ، من غير تلون فيه ولا اخلال به في وقت دون وقت .

وبذلك اذا عرف الافضل يعرف الانقص ، على اعتبار ملاحظة الغد ، فالكمـال الخاص بالانسان ينحل في الحقيقة الى كمالين ، ذلـك لان للانسان قوتين : احداهما العالمة والاخرى العاملة .

فباحدى القوتين يشتاق الى المعارف والعلوم ، وبالاخرى الى نظم الامور وتنسيقهـا ، وبهاتين القوتين سما الانسان الى معارج الكمـال وتحلل من اسر المادة وعلائقها ، فقبض بكلتا يديه على مؤسسة هـذا الوجود ، واخضعهـا لتصرفاته التي تعتبر اثـرا مـن آثاره ، ونموذجا صالحا من نماذج الانسانية الفاضلة والخلق الكريم .

فان للانسـان في ترتيب هـذه الآداب وتلـك وسياقهـا اولا فأولا الى الكمال الاعلى طريقـا طبيعيا يشتبه فيها بفعل الطبيعة ، بـان

ينظـــر الى القوة التي تحدث فينا ، ايهـــا اسبق الينـــا وجودا ، وامضى بيـــن ظهرانينا قدمـــا ، فيبدأ بتقويمها ، ثم بمـــــا يليهـــا على النظـــام الطبيعـــي وهو بين جلي •

ذلك ان اول ما يحدث فينا هو الشيء العام الذي يحدث للحيوان والنبات بنوع عام ، ثم هو لا يزال يختص بشيء بعد شيء يتميز به عـــن نوع بعد نوع ، حتى يستحيل الى الانسانية •

من اجل ذلك يذهب الاخلاقيون ، الى ضرورة ان نبدأ اولا بالشوق الذي يحصل فينا بواسطة الغذاء فنقومه ، ثم بالشوق الـــذي يحدث فينا الى الغضب ومحبة الاثرة والتسلط فنقومه • ثم بآخر مراتبه وهو الشوق الذي يحصل فينا الى المعارف والعلوم فنقومه ، وهذه المرتبة الاخيرة هي المتخلصة للانسان ، فهي مرمى طرفه وراحة كفه ، وهي التي يسعد بهـــا في السعداء ويشقى بها في الاشقياء ، فاذا قوّمها فانمـــا يقوم اسبابهـــا وينسق عللهـــا •

وليس معنى ذلك ان يقومهـــا كمـــا قومها في المرتبتين الاوليين ، فان الانسان اذا اشتاقت نفسه الى العلوم والمعارف قبل ان يقطـــع شوط الطفولة وما يقرب من حد المراهقة واليفوعة ، كـــان ذلك غير قـــانـــون الاخلاقيين • فكـــان ضروريا ان يلقن في تلك المرحلة من مراحله مبادىء ذلـــك القانـــون رويدا رويدا ، حتى تستحكـــــم عراه وتتآخذ علله واسبابـــه •

وهذا الترتيب طبيعي لما يبدو في الانسان من اول نشوئه من الشعور بانه يكـــون جنينا ، ثم يكون طفلا ، ثم يكون رجلا كامـــلا • فكـــان بدهيا ان تحصل فينا تلـــك القوى مرتبة على منازل ثلاثـــة • ومن اجل

ذلك كان الانسان في آخر دور من ادوار وجوده حامل الرسالة ، ومؤدي الامانــة وخليفــة الله في ارضه •

ومما هو غني عن البيان ان الانبياء والرسل كانــوا اشرف الناس بالقياس الى شرف ما يصدر عنهم من كرائم الخصال وبيض الفعال ، لانهم احاطوا عقولهم ونفوسهم بتلــك المثل العليا للفضائل ، فورثهم ذلــك النبوغ الاخلاقي ، استحقاقهم لان يقبضوا على ناصية هذا الوجود،وان يشعوا فيه اضواء رسالاتهم وتعاليم وحيهم بين الناس جميعا ، فكانــوا المثل الكامل في الانسان الكامل •

شوق النفس ــ ويقصد به شوق النفس الى فضائلها الصادرة عنها ، وكيف ان النفوس تجنح الى فضائلهــا وتحدب عليها حدب الام الرؤوم على واحدهــا •

فالفضيلة التي تكوّن سائر الفضائل لا بد ان تكون مستندة الــى عناية الانسان بتحصيل العلوم ، ثم تحصين النفس من الطغيان الشهواني ، الذي اذا اصاب النفس في صميمها ، قتــل فيهــا روح الاستعداد للخير ومحضهــا للشر •

فهذه الفضيلة تقوى وتتزايد بمحض عمل الانسان ذاته،وتوافره على افضل المثل العليــا يتخذهــا عنوانا على كل ما يصدر عنه مــن الافعال •

فقد يبدو للانسان لاول وهلة ان مــا يقع تحت سلطان المشاعــر كالمآكل والمشارب وما اليهــا من صنوف المتع داخل في عداد الفضائل ، ولكنــه اذا راجــع نفسه يتبيــن ان تلك اللذائــذ لا يصــح ان تعتبر فضائل ولا تسوغ ان تكون شعارا للانسان الناطق •

فكل موجود من حيوان او جماد اونبات،وكذا بسائطهــا والاجرام

والعمل على انمائها واذكاء اسبابها وبواعثها ، وهو الذي سمى الكائن (هو ما هو) و (اي شيء هو) ، وبها يتميز ذلك الموجود عن كل ما عداه •

كما ان له قوى وملكات وافعالا يشارك بها ما عداه • والانسان بطبيعة تكوينه هو الذي يلتمس له الخلق المحسود بوصف كونه نفسا مفكرة ناطقة ذات سلطان على الموجودات •

وهذا مصداق قوله جل من قائل « هو الذي خلق لكم ما في الارض جميعا » •

من اجل ذلك ليس لنا ان ننظر نظرا تحليليا مصحوبا بالتمحيص والتدليل الى تلك القوى وتلك الملكات التي يشارك الانسان فيها سائر الموجودات ، ما دمنا بصدد الكشف عن الفضائل والخيرات التي يجب ان تكون مميزات النفس الناطقة ومقومات لها •

ولسنا الآن بصدد بيان شيء منها ، لان بحث الاخلاقيين مقصور على بيان القوى والملكات والافعال للانسان ، فمتناول بحوثهم قوى الانسان وملكاته وافعاله من حيث صدورها عنه واتصالها به ، ويسمونها العلوم الارادية ، باعتبارها حاصلة بمحض اختيار الانسان ، وارادته ، وهي التي بها تتعلق قوة الارادة والتمييز •

والنظر فيها وفي مقدماتها ونتائجها وآثارها المترتبة عليها يسمى الفلسفة العلمية ، ويرتبون على تلك النظرة ضرورة انقسام الافعال الصادرة عنه الى الخيرات والشرور ، وبالتالي الى الفضائل والرذائل • ذلك لان الغرض المعين من وجود الانسان اذا اتجهت النفوس اليه مخلصة هو تركيز الفضائل في تلك النفوس ،

والعمل على انمائها واذكاء اسبابها وبواعثها ، وهو الذي سمى الانسان به وعند تحصيله اياه خيرا ، فاذا عاقته عن تحصيل تلك الفضائل العوائق وصرفته عنها الصوارف ، كان هو الشرير لا محالة ، لاستحالة خلو نفس الانسان من كلا المتقابلين في آن واحد .

وبدهي ان كل موجود من الموجودات له كمال خاص وفعل خاص لا يشاركه فيه غيره من حيث هو ذلك الشيء في مشخصاته ومميزاته ، فلا يجوز ان يكون موجودا سواه ، يصلح لذلك الفعل صلاحية الانسان الذي اجتمعت له تلك المشخصات وتلك المميزات . وهذا حكم مطرد البقاء في العوالم السفلية والعلوية .

فاذا الانسان من بين سائر الموجودات له فعل خاص صادر عنه لا يشاركه فيه غيره ، وهو ما صدر عن قوته المميزة المقرونة بالروية .

واذا يكون كل من كان تمييزه اصح ورويته اصدق واختياره امثل ، كان اوعى لاسباب انسانية واجمع لمقوماتها . وقد يتدلى الانسان بالقياس الى ما يصدر عنه من الافعال حتى ينحط الى مرتبة ليس دونها مرتبة.

وافضل الناس من كان اقدر على تصريف افعاله الخاصة به ، واشد تمسكا بشرائط الفضائل وحدودها ،واكبح لجماح نفسه عن الاسترسال في غوايتها والركون الى شهواتها .

ومما لا حرية فيه ان الانسان كلما رقي بجوهر نفسه الى الكمالات، كان اعم انسانية واعود فائدة على المجتمع .

والانبياء والرسل عليهم ان يبينوا السنن والطرائق لكل ما يصدر عن الانسان من خير وشر . فقالوا هذا حلال وهذا حرام وبينهما امور مشتبهة .

وجاء العلماء على اقدامهم فاوضحوا السبيل واقاموا بين الناس

حدودا فاصلة حاسمة • فالانسان بقدر مـا يغترف من تلـك الفيوضات الالهية ، يكـون مبلغ استحقاقه للاتصاف بوصف الانسانية ، فاذا انحط على تلـك المراتب المرسومة الحدود كان خليقـا ان لا يكون انسانا•

واذا تبيـن ان سعادة كل موجود انما هي بالقياس الى ما يصدر عنه من العلوم الارادية والافعال الاختيارية التي تميزه عما عداه وترسم حده التام بيـن ثنايا الخلود التي لا يتناكر فيها الاشخاص ولا يطغى فيها بعض الاناسي على البعض الآخر ، لا مناص من اعتبار الروية اعلى سببا مـن الاسباب المكونة لمراتب السعادة كلها •

فان لهذه السعادة مراتب كثيرة متفاوتة ، بحسب الروية والمـروى فيه وهو الانسان • من اجل ذلك قالوا افضل الروية ، ثم ينزل رتبة فرتبة، الى ان ينتهي الى النظر في الامور الممكنـة التي تقع تحت سلطان العالم الحسي • فيكون الناظر في تلك الاشياء قد مارس رويته واعمل قريحته ، فحصل على الصورة الخاصة التي بها امسى سعيدا مستأهلا للملك الابدي والنعيم السرمدي •

وقد تواضع علمـاء الاخلاق على ان هناك اجناسا مـن السعادات والشقاوات • وان الخيرات والشرور في الافعال الارادية ، هـي امـا باختيار الافضل والعمل به ، واما باختيار الادون والميل اليه •

على ان هذا المجتمع لا يثمر ثمرته المرجوة الا بتضافر الايدي العاملة في بنائه • فما من لبنة في اساسه الا وهي محتاجة الى يد تحكمها بتدبير وتحيطها بحزم وتنميها بروية ، فلا يتم بناؤه الا باجتماع الايدي وتضافر القـوى •

من اجل ذلك اوصت الشرائع الناس ، بالتحاب والتراحم والتواصل، لتبقى له حياته وتدوم عليه نعمة الوجود الذي يجني الناس مـن ورائه اطيب الثمرات وابرك الفوائد •





محمّد أبو زهرة

محمّد يوسُف موسىٰ

محمُود فيّاض

عَبد الحميد العبّادي

عَبد المنعِم خلاف

محمّد أحمَد الغمرَاوي

د. عَبد الوهّاب عَزام

يوسُف الدجوي

أبو بَكر زكري

عبّاس طه

التوزيع :

مكتبة الشواف

الرياض العليا - شارع الثلاثين

هاتف : ٤٦٢٢٦٦٧ / ٤٦٢٢٦٣٠